# نَجاةُ مِنَ النَّثْرِ الْفَنِّى

## مَقالاتٌ وَمَقاماتٌ

## الْجُزْءُ الثَّانى

الدكتور محمد جمال صقر
كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

مُؤَسَّسَةُ العَلْيَاءِ

---

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م

---

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٨٧١١

---

الناشر
مؤسسة العلياء
للنشر والتوزيع
٤٦ ش البستان ، عابدين ، القاهرة
ص.ب ٢٠٣٣ الرمز البريدي : ١١٥١١
ت وفاكس ٣٩٦٢٣٤٦
E-mail:elalyaapublisher@yahoo.com

---

# فِهْرِسٌ




بريد الكاتب الألكتروني:

mogasaqr@yahoo.com

# مِهْرَجانُ الْفُرْنِ الأَكْبَرِ

إنّني لَطَروبٌ، قد اسْتَوْلَتْ عَلَيَّ «والأَعْشى إذا طَرِبَ».

بها فخُذْني - أيها القارئ العَتيدُ - لا بغيرها؛ فلم أكن أحسن حالا مني إذا طربت، ثم لمّا عرفتُ الأعشى تَعاشَيْتُ راغِبًا حتى إذا القُرّاء قالوا: يا أبـا بصـير، خِلْـتُ أنني دُعيت؛ فلم أكْسَلْ، ولم أتَبَلَّدْ!

وماذا تبتغي القُرّاء منّي وقد غَيَّرْتُ حَدَّ العاقِلين!

إنهم لهاربون، قد اسْتَوْلَوْا على «والنّابغَةُ إذا رَهِبَ».

بغيرها فَخُذْهُمْ - أيّها القارئ العَتيدُ - لا بها؛ فما هم من رَهْبَةِ النابغة ولا عَتْبِهِ إلا «كَالهِرِّ يَحْكي انْتِفاخًا صَوْلَةَ الأسَدِ»، أو كسامّ أبرص يحكي تَثاؤبًا نَهْشَةَ التِّمساح، ما وراء أكَمَتِهِمْ من شيء إلا التَّدْليس وإلا التَّلْبيس، اللذين لا يستوليان على البَيان إلا حين يستوليان على الجَنان؛ فإذا القراء على شَفا جُرُفٍ هارٍ. ولكن لا يحبون الناصحين!

شَرِقوا شَرْقَةً بها حَصَّلوهُ ذَبَحَتْ عِلْمَهُمْ فَغاروا وَغارا

أمّا أنا فَطَروبٌ، قد اسْتَوْلَتْ عَلَيَّ «والأَعْشى إذا طَرِبَ».

أتَدْري - أيها القارئ العتيد - ما هذا الطَّرَبُ؟

إنه مِزاجٌ من نَشْوَتَيْنِ مَعْنويةٍ ومادّيةٍ، يُمازج الطَّروب؛ فيُذْهِلُه، ويَستَخِفُّه؛ فيجترئُ على ما لم يكن لِيَجْتَرِئَ عليه.

آه، لو تَيَسَّرَ لنا أن نطرب متى شئنا، إذن... ولكن لـو بقينـا طِرابًـا مـا كتبتُ لـك ولا قرأتَ لي!

أجل!

إنني إذا طربت رَجَعْتُ إلى حالي الأولى؛ فبقيت فيها عـلى حـالي الأخـيرة؛ فـلا يكـون أدْخَلَ في الجنون منهما؛ فلا الأولى أولى، ولا الأخيرة أخيرة!

صباح الخير.

صَباحكْ صَبــاحينْ          صَــباحِ الهَنا وَيـّا الزينْ

صَــباحْ مِنْ رَدّ دينُهْ          وِازْتِجَعْ ما عَليهْش دينْ

هكذا عودتني جدتي مبروكة، أن تغني لي تحيتها البديعة كلما طلعتُ عليها من هذه القاعة البَرّانيَّة المجيدة التي أعشق تعليق عيني على سقفها المُصْطَفَّة فيه عيدان البوص على جُذوع الجزْوَرينِ؛ فأتناوم بعد يقظتي إلى أنْ تملَّني، مثلما تَعَوَّدَتْ أن تخْلُفَ جدي على مَصْطَبَةِ مدخل الدار، تتلو أذكار الظهر التي لا يعلمها إلا الله، وقد اضطرَّها المَرَضُ والسِّنُّ، إلى أن توكِل إلى إصلاح ابنتها الصغرى ونادية ابنة فاطمة ابنتها الكبرى، عَجْنَ عَجينتين من طحين القمح: صغيرة للفطير، وكبيرة للخبز، وأن تَخْتَصَّ هي بأبْرِمة الأُرْز المُعَمَّر والبَطّ المُحَمَّر!

أرتاح إلى جوارها بينها وبين صَحْفَةِ قُلَلِ الفَخّارِ القناوية.

كيف كان نومك؟

أحسستُ لشيء ما دبيبًا عامًّا، كأنَّ قافلة من أُمَّة النَّمل تمهد لأنفسها طرق قريتها؛ فهي ذِهابٌ على جسدي وإيابٌ لا ينقطعان ما استغشيتُ حِرام جَدّي!

تضحك جدتي تضحك تضحك حتى تُبدي فَكَّيْها الاصطناعيَّيْن اللذين بَرَّها بهما عمي، ثم تضرب يمناها في جيبها التائه في طوايا جلبابها الجديد الذي بَرَّها به أبي؛ فتستنبط لي تمَرات وسودانيّات تعرف أنهما يبهجانني إذا اجتمعا؛ فأُزاوِجُ بينهما في فمي صافحا عن النمل.

ثم تقوم إلى صُفَّتها قليلا؛ فتأتيني بطبق فَتيتِ الرُّقاق بالحليب المقدَّس، ثم تقوم إلى ما جَهَّزَتْه للفُرن الصغير بالقاعة الجَوّانيَّة الغَرْبيَّة.

ولد، يا محمد، الآن انتبهت؟

يا حامي - مُقلِّدًا جَدّي الغائب - ألا أُفطِر!

لقد تَغَدّى الناس!

وماذا أكلوا؟

اصْعَدْ ـ يا خائب ـ إلى السَّطح؛ فارم لنا من حُزَم الحَطَب وأقراص الجِلَّة.

طرتُ مبتهجًا؛ فما أحبَّ الأسطح إليَّ! أحظى بالسماء، وأتَسَرَّبُ سريعًا إلى خبايا الحزم المتراكمة والأقراص المُصْطَفَّة؛ عسى أن أقع على أوْكار عصافير أو يمام أو مَحاضِن دجاج أو بط أو عُرُنٍ كلاب أو قطط، ثم ببحجة الاتمار والتَخَيُّر أقلبها جميعا رأسا لعقب، وأُلقي من صَـلْعَةِ السَّقْف السَّماويَّة حتى تستكفيني نادية؛ فأنزل لأشهد كيف تحرق قلب فـرن الرَّحْبـة الجَوّانيَّـة الجديد الذي شهدت بناءه، وأحببت سِتَّهم الفَرّانة الهيفاء التي تَعَلَّقَتْ بهـا في خـلال بنائهـا لـه أسماعُ الرجال والنساء وأبصارُهم وأفئدتُهم!

كانت نادية تحشو بَطْنَهُ حَطَبًا، وَزَوْرَهُ جِلَّة، ثم بالمِصْلَحَة تجلـو صَـفْحَةَ بلاطتـه تُؤَهِّلُـه لأقراص عجينة الفطير الطاهرة الفـاخرة المُتَخَمِّـرة، وكانـت عمتـي تسـتر وجـوه الأقـراص الشريفة، بخُمُر الزُّبْد الشَّفيفة، ثم أقبلتا تتعاونان على مناولة فم الفرن ما تَبْهَرُ به قَـريتُهُما سـائرَ القُرى.

تُرى مَن تَفوز؟

أيَّتُهما التي تملأ بلاطة الفرن أقراصًا أكبر وأكثر؟

ليس في اثنين ولا ثلاثة من براعة؛ فربما قدر عليها صبي مـثلي، فأمـا البراعـة ففـي أن تُرَتِّبَ إحداهما أربعة أقراص كبارًا أو أكثر، على بلاطته المحـدودة مـن دون أن تمَـسَّ أطرافهـا جوانب الفرن وإلا شَوَّهَتْها وأضحكت عليها خَصيمتها.

إن نادية لبارعة، ولكن عمتي أَخْفى دائمًا بذلك وأقْدر عليه، وإننـي لشـديد الابتهـاج بهما أُسيرُ أيديهما حتى فرغت.

عمتي إصلاح، اكشفي لي حظي.

فتَمُطُّ بيديها طرف عجينة الخبز الكبيرة من وعائها الضخم، فيمتد لهـا لسـان طويـل، فترفعه إلى آخر مداه، فتهوي به طبقا على جسم العجينة؛ فتنتفخ بـين طبـق العجينـة وجسـمها نُفّاخة ما، ربما كانت كبيرة؛ فدلت على عظم حظي، وربما كانت صغيرة؛ فدلت على ضآلته!

أراها تنتفخ فتنخرم فتذهب كأن لم تكن؛ فأضحك: ما هذا الحظ المخروم!

حتى إذا ما فَرَغَتْ من تَقْريص عجينتها الكبيرة، تركت الأقـراص تتخمَّـر، وأغلقـت عليها باب القاعة البرانية التي لن أنام فيها مرة أخرى!

بنت يا نادية، ألم تُنَبِّهي على نَوْبَتِنا من فرن أبو سليم، كما قلت لك؟

بلى نبهت، وقبلنا ثلاث: فاطمة امرأة حمـدي، وفاطمـة امـرأة أحمـد، وجمـالات امـرأة مزروع، وبعدنا...

لا، لا. ينبغي ألا يكون بعدنا من أحد؛ فمـن أرادت فلتتقـدم قبلنـا، وإلا أَخَّرْناهـا إلى آخر الليل.

ولد يا محمد، انزَرِعْ هنا، ولا تدع أحدا يفتح باب القاعة، وإلا دخلت الطيور فأكلـت الأقراص أو أفسدتها.

ما أَطْرَفَ أن أرى الأقراص تزيد وَحْدَها على لَوْحِها، ولكنني لا أتحمل المراقبة.

أَأَفِرُّ قريبًا إلى دار عمتي عَدْلِيَّة التي أغامر بالنفاذ إليها أحيانًا من فوق الأسطح فأصعد فأتعلق وأخترق فأزحف وأهبط فأمشي فأفضح وأخرب وأستر، حتى إذا ما وصـلت غافلـت عمتي فسرقت حمارتها إلى العرقوب أَتَحَمَّمُ بالمشروع مستأنسًا بالفتيات يغسـلن مـواعينهن، أو إلى حوض العرب أصطاد أمشاط البُلْطي من ترعة رأس الغيط؟

أَمْ أَفِرُّ بعيدا إلى دار جدتي نعمات خالة أمي التي أتسرب إليهـا مـن خـلال دار سَـيِّدَتِنا صَنْصَف بظهر الشارع دون أن تدري العجوز المُحَفِّظَة قصار السور بتلحين أطفالي عجيـب لا تمّحي من الذاكرة أصداؤه، فأتجاوز إلى الزُّقاق لأعتلي سوره فأثب إلى شريان السقاية في الجهـة الأخرى فأظل أجري فيه مجرى المياه ثم أدخل من رحبـة رأس الغـيط، حتـى إذا مـا وصـلت تَعَلَّقْتُ بجـدتي أن تحكـي لي مـن أخبـار العَـبْسِيِّ أو التَّغْلَبِـيِّ أو الهِـلاليِّ التـي تحفظهـا وتـتقن حكايتها؟

أَمْ أَفِرُّ أبعد إلى دار عمتي فاطمة التي أخشى أن تطبق على جنبيَّ في خلال سعيي إليها جُدرانُ دور زُقاقها الخارج على تقاليد طرق الأرض، حتى إذا ما وصلتُ غافلت عمتي فهربت بسَميّي وأخي فَرَطاتي ابنها الذي لا تمنعه تحذيرات أبيه من أن يتعلق بي كما أتعلق به، ويا ويلهم إذا اجتمعنا فجَرَّأَ بعضنا بعضا فلم يعرف لنا أحد سبيلا ولم يستطع حيلة؛ فَمِنّي الرَّغْبَةُ في التَّفَلُّت، ومنه العلم بِمَنادِحِهِ، وعلى الدنيا السلام؟

بل أبعد!

سِحْنا جياعا عطاشا حفاة شعثا غبرا، لا يعطفنا طعام ولا شراب ولا حذاء ولا كساء، إلى المساء، حتى إذا ما أُبْنا، وبلغنا ناصية شارعنا، وجدنا مهرجان الفرن الأكبر!

اللهم شكرًا شكرًا!

تقود دور شارعنا، دار محمد أبو سليم التي تفتح بابها في عمود طُرُق القرية. دارُ نَعْمَةٍ وكرم. كم قضينا فيها ليالي رمضانات نشاهد المسلسلات المُتَلْفَزة الآسِرَة، حين لم يكن في غيرها من دور شارعنا جهاز واحد؛ فمن اطلع على الرَّحْبَةِ العليا من تلك الدار بعد الإفطار، اطلع على شَعب من الأطفال يَدينُ للممثلين بجوارحه كلها؛ فلا يَتَلَهّى عن حركاتهم ولا سكناتهم، ولا يُلْهي عنها، ثم هو لا يبرح أرض الرحبة فُرادى بل جماعات؛ فلن يُفرّط في هذه المتعة واحد، ثم لن يجرؤ على أن يمر بالطابق الأسفل المظلم من هذه الدار الكبيرة وحده!

ثم كان من كرم هذه الدار، أنْ بَذَلَتْ خَدَّها الأيمن لمقام الفرن الأكبر.

لقد كانت أفران قريتنا ثلاث طبقات:

أدناها طبقة أفران القاعات؛ ففي أحد أركان كل قاعة من كل دار، يقوم فرن صغير على أسرة القاعة، ينضج لها قوتها الخاص، ثم يجففه، ويَدْرَأُ عنها قسوة البرد، ويحتضن بظهره صغار طيورها الخاصة.

وأوسطها أفران الدور؛ ففي رحبة كل دار الجَوّانِيَّة الضاحيةِ للشمس، يقوم فرن كبير على أُسَر الدار، ينضج لها طعامها العامَّ، ثم يحفظه، ويَدُلُّها بشعاع الشمس عليه، على مواقيت الأعمال!

وأعلاها طبقة أفران الشوارع؛ فإلى أحد جدران دور كل شارع، يقوم فرن أكبر على أهل الدور، ينضج لهم طعام الطوارئ، ويغنيهم كثيرًا عن وقوده؛ فلن تعدم امرأةٌ عليه تِرْبًا تُهَيِّئُ طعامًا؛ فهي لا تَتَلَبَّثُ عنده طويلًا حتى يَحْمى، بل تكاد لا تبذل في إحمائه عودا ولا قرصا.

لم تعبأ دار محمد أبو سليم بعمود طرق القرية الذي بابها فيه، بل تمسكت بشارعنا وآخَتْ دوره برًّا بُنِيَتْ عليه، ثم كان برّها الأكبر بالفرن الأكبر.

محمد، هي ذي نادية أختي، وخالتك إصلاح!

هكذا هو دائمًا، يجعل عمتي خالتي، على عادة المُتآخين في قريتنا!

ولد، يا ابن فاطمة، إلى أين أخذت ابن خالك، يا ملعون؟

هكذا هي دائما، تجترئ على أبناء أَخَواتها أكثر من اجترائها على أبناء أخيها الكبير أبي الذي كان لها والدًا ثانيًا، وكأنهم كانوا لها إخوانًا آخرين؛ فلم يكن منهم إلا أن صَدَّقوا!

تَلَقَّفْ هدايا خالتك!

عمتي إصلاح، نادية! أنتما هنا؟

منذ العصر بعدما هَرَّبَكَ ابن فاطمة!

لا، والله، ياعمتي، بل أنا هَرَّبْتُه، ولو عرف أبوه لرماه في الترعة كما فعل من قبل، ولكنه من أجلي أنا لا يبالي!

اقترب... خذ.

ما هذا؟

سوداني محمص وذرة و بطاطس مشويتان وخبز قمح طازج، هدايا الفرن الأكبر!

لقد كان من كراماته ألا تذهب عنه خابزة حتى تودع عند أهله من نفحاتها، ومن قبلُ ما تُقْسِمُ على الذاهب عليها والآيب، إلا ما ذاق من عمل يدها، ولْيَكْفِها عَفْوُه عن إنكارها لعمل يده!

الله! جاءت في وقتها. ومحمد؟

هو شبعان منها!

هكذا أهل دار جَدّي دائما، يميزون في الشمس أبناءهم الزائرين من أبنائهم المقيمين آمِنين بخَصْلة الوُدِّ لِمَّة الحِقْدِ، ولكنني أقسمها كما أفعل دائما بيني وبينه؛ فلم يكن ليشفع لجوع اليوم الذي أراه، شبع الأمس الذي لم أره!

قعدنا نلتهم ما أمامنا، لا نميز لبه من قشره، ولا نضيجه من حريقه، خلف لوح أقراص عجينة القمح الذي تُناول منه عمتي ونادية فم الفرن، حتى أقبلت صباح خادم سيدتنا صَنْصَف.

بالله، يا خالتي إصلاح، اسمحي لي أن أخبز هذين القرصين لخالتك صنصف تُصِبْكِ بَرَكَتُها.

الآن؟ ألا ترين ما نحن فيه؟

سامحيني، لقد شغلتني حتى تَفَلَّت الوقت.

لم تُخَلِّ لها عمتي ونادية عن فم الفرن عند أقرب فراغ من مناولاتهما، تَبَرُّكًا، بل تَخَوُّفًا؛ فلقد اشتملت سيدتنا صنصف، ببركة كتاب الله، على لسان ذَرِبٍ لا يقوم له شيء إلا أقعده؛ فما ثَمَّ امرأة عاقلة تحتاج إلى أن تستثيرها.

ولو أنها صباح واحدة لهانت، ولكنها صباح واثنتان وثلاث!

لَمّا عمت البركة، تواترت من كل جهة إلى الفرن الأكبر، النسوة المستعجلات المستسهلات الهازئات بقانون النوبات المختلفات عُدَّةً وقُدْرَةً ومَهارَةً.

سُبحانَ الذي خَلَقَهُنَّ!

كلُّ امرأةٍ جَبَلٌ لا يَظْهَرُهُ الرجال!

لم تمنع أيًّا منهن جَفنةٌ على رأسها، ولا رضيعٌ على ساعد يسراها، ولا يسرى صبيٌّ مُتَعَلِّقَةٌ بيمناها، ولا يمنى صبيةٌ متعلقةٌ بذيلها، من أن تريد الفرن الأكبر، وتذود عن إرادتها.

ليتهن لا يسكتن؛ فليس أعذب في الموسيقا الفَلّاحيَّة من تخاصمهن وتسابهن وتلاعنهن!

يا بنت، يا مَلْسوعة، يا مهجورة، يا وجه الفقر، يا سَقَطَ المتاع، يا قَعْرَ الماعون، يا رماد الفرن، يا خَميرة الخراب، يا طعم القَيْءِ، يا سِباخَ الزَّريبة، يا وَحَلَ الحَرّارة!

بتّة تبتّك، يا غَضَبَ الله، يا غول المَشْروع، يا أُمَّ أربعة وأربعين!

مسكينةٌ هذه البنت، ساذَجةٌ لم تتأدب بعد، فأما تلك المرأة فينبغي أن تكون عماد هذا الفن، وملاكه، وقوامه، وذروة سنامه، وأن يكون من بين يديها جرى ينبوعه، وتدفق سلساله، وعنها تواترت نصوصه، وتزخرفت فصوصه!

ولكنهما لا تلبثان متى جلستا في حضرة الفرن الأكبر، أن تأتلفا أختين شقيقتين لم تخرج من فم إحداهن إلى أذن الأخرى عَيْبَةٌ قَطّ، تتكاشفان وتتناصحان آمِنَتَيْنِ، بل تَكُرّان علينا أنا وابن عمتي، ساخِرَتَيْنِ مِنْ لَهْجَتي الحَضَرِيّة مَرَّةً ومن العُمْدة وظِلِّهِ الحارس الأمين فينا مَرَّةً أُخرى!

هيا، يا عيال، احملوا هذا الخبز إلى الدار، وسآتي أنا ونادية بما بقي.

كذا نساء دار جدي دائما، يخفن على أبنائهن الزائرين العيون القَوْراء، وكأننا إذا ابتهجت بنا امرأةٌ أنْ: «يا سَعْدي، هؤلاء أبناء أخيك!»، سَقَطْنا عند مُنْحَدَرِ الكافِ.

يا سلام! دعي نادية تأتي هي به وراءنا!

هذا مساء بديع، دارنا مستباحة الأحشاء للقرباء والغرباء، ثم أحشاء دور شارعنا مباحة لها؛ فلم يكن لجار ولا جارة أن يتأخرا عما يجوز لها أن تحتاجه في هذه الليلة.

وهذا الباب الطويل العريض المفتوح يبسط للدار في الشارع رحبة ويمد للشارع في الدار دربا؛ فتمَّحي خصائص الدار والشارع، وتثبت خصائص العُرْس.

ليس أحبَّ إليَّ مِنْ فَوْضى تشغل الكبار!

ينفذ في خلال الزحام صوت قديم لفاطمة عيد، بهجة عمتي إصلاح:

خَلِّ بالَكْ يا وَلا، خَـلِّ بالَكْ

أُمّي وَبويا ضَرَبوني عَلى شانَكْ!

فيحرك ساكن الصبابة في قلوب الكبار، ويكلأ نابت الألفة في قلوب الصغار.

ينبغي أن يؤرخ بهذه الليلة لَمَسْرى الكهرباء في مصابيح هذه الدار؛ فقد جُهِّزَتْ من قبل ولَمّا يُعَلَّقْ لها عَدّادُها، ثم أضيفت لها اليوم مصابيح الزينة؛ فلم تكن ثَـمَّ حيلةٌ عند جمهور المزدحمين إلا سَرِقَة التيار!

طرت أنا ومحمد إلى السطح، فجذب لي من إحدى حزم حطب الذرة المتراكمة، عودا طويلا؛ فشَقَقْتُ رأسه، وأنْفَذتُ فيه طرف سلك التغذية المثني كصنّارة خبيثة، ثم مددته؛ فاصطدت به سلك التيار العام المتعرض كسمكة طيبة؛ فَأَزْهَرَتِ الليلةُ وابْتَهَجَتِ الدار!

وَصَلَ العَروسان، وَصَلَ العَروسان، وَصَلَ العَروسان.

طار الجمهور كله هذه المرة، إلى ناصية الشارع حيث تضرع السيارة عند عتبة الفرن الأكبر؛ فلا يجوز لها أن تتخطاها؛ فينزل عمي الرجل الوديع الجُيولوجيُّ وعروسه الشابة الحَسْناء المُحاسَبيَّة، تاركَيْنِ أنفسَهما لتَيّار أهلنا الفلاحين المزدحمين؛ فيصدح الزفاف متطابقةً فيه صَفَقاتُ الأكفّ ونَغَماتُ الأصوات.

حَلاوه بيضـا عَ الميزانْ

والنَّبي بيضـا عَ الميزانْ!

كُتْر المـالِ يجِي بالغالي

كُثْر المـــالِ يجي بالغالي!

فإذا قلت لي: قد أفسدت ببيان عبد القاهر الجرجاني، ومحمود محمد شاكر ـ رضي الله عنهما! ـ هذا المقامَ الفلاحيَّ المَحْضَ، أنشدتُك:

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَكُلٌّ مُمْتَزِجْ وَساوِسٌ في الصَّدْرِ مِنْهُ تَخْتَلِجْ

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضُ يَخْبُثُ بَعْضٌ وَيَطيبُ بَعْـضُ!

ثم قلت لك: بل قد نسيتَ أنت أَخْذَةَ الطَّرَب!

أَتُرى هَرَبَهم أحبَّ إليك ـ أيها القارئ العتيد ـ أم طَرَبِي هذا؟

لا لَعًا لَهم!

لا لَعًا لَك!

# مَنازِلُ الشَّمْسِ في شِعْرِ أَمَلْ دُنْقُلْ

# نَمَطٌ مِنْ تَأْويلِ الْأَحاديثِ أَفْضَل

## مُقَدِّمَةٌ

أقسم الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ بالشمس، في مطلع سورة باسمها: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}[1]، التي عبدها بعض الأمم: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ}[2]، على رغم أنه ـ سبحانه، وتعالى! ـ كره بقاء آثار الإشراك به.

وبهت سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام! ـ النمروذ، بالشمس: {إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ}[3]، التي بهرته من قبل: {لَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ}[4]، على رغم أنه ـ عليه السلام! ـ أدرك ما فيها من نقص المخلوق عن كمال الخالق؛ فهي التي تشرق على الدنيا؛ فكأنها لم يمسها ظلام، ثم تغرب عنها؛ فكأنها لم يمسها ضياء.

سبحان الذي ذكر الشمس في كتابه ثلاثًا وثلاثين مرة[5]، بين العابدية والمعبودية، والقريبية والبعيدية، والشارقية والغاربية، والمضيئية والمشعلية ـ وسخرها لاحتمال الأضداد؛ فأمنها ناس وخافها آخرون، وأحبها ناس وأبغضها آخرون!

ومن الناس؟

قال عبدالله بن المبارك، السيد العالم ـ رحمه الله! ـ: هم العلماء، جوابًا صريحًا[6].

وقال أحمد شوقي، السيد الشاعر ـ رحمه الله! ـ هم الشعراء، جوابًا ضمن بيته:

«جاذبتني ثوبي العصي وقالت أنتم الناس أيها الشعراء»[7].

وكلا الجوابين سواء؛ فالعلم والفن، ومنه الشعر - سبيلان إلى الحقيقة مختلفان مؤتلفان، وكفى دليلًا أن الشعر في أصل لغتنا، العلم.[8]

لم يجد السيدان ابن المبارك وأحمد شوقي - رحمهما الله! - في غير العلماء والشعراء، من علامات الحياة شيئًا! وكيف يدعي الحياة من لم يختبر ما فيه وما حوله بالعلم، أو يذقه بالفن!

قال السيد أبو العتاهية - رحمه الله! -:

لا تطلع الشمس ولا تغيب إلا لأمر شأنه عجيب[9].

ولم يكن عجيب شأنها عند السيد أبي أمامة، إلا «الغلبة»:

«فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب»[10].

ثم لم يمر يوم من أيام هذا الحيّ، منذ حملق في الشمس أمنا أو خوفًا، وحبًّا أو بغضًا - إلا بمعنى لها عنده، وليد جديد، حتى إذا ما نشأ المتأخر، ورث ذلك كله، ورباه ونماه وزكاه.

وإنا لنعجب كما عجب السيد أبو الفوارس، أن يبقى للمتأخر ما يزيده:

«هل غادر الشعراء من متردم»![11].

ونوشك أن نقر للسيد زهير، مقالته:

«ما أرانا نقول إلا معارًا أو معادًا من لفظنا مكرورا»[12].

- لولا ما نعرف من فطرة الأحياء على الاختلاف: «الناس أخياف»[13].

## شَمْسُ الصَّعيدِ

نفذ في القاهرة سنة ١٩٥٧م، محمد أمل فهيم أبو القاسم محارب دنقل، المعروف بأمل دنقل[١٤]، الشاب الصعيدي الشاعر المسنون، في السابعة عشرة من عمره القصير (١٩٤٠ ـ ١٩٨٣م) ـ مؤمنًا بالحياة شعرًا وبالشعر حياة[١٥]؛ فذاق معالم الحياة كما لم يذقها أقرانه[١٦]، وأولع بذكرها في شعره كما لم يولعوا[١٧]، وكأنه كان يبادر الموت!

كيف لا يذوق الشمس إذًا صعيديٌّ، وهي الصعيد، ويولع بذكرها من يبادر الموت، وهي الحياة!

لقد تبينها على سبيل الاستعارة التصريحية، في [١٢] منزلا (معنى)، في [٥٥] مرة، في [٣٣] قصيدة من [٨٩] هي مادة مجموعاته السبع بطبعة ديوانه الأخيرة، على النحو التالي في الجدولين:[١٨]

| م | المجموعة | قصائدها | الشمس | قصائدها |
|---|---|---|---|---|
| ١ | البكاء بين يدي زرقاء اليمامة. | ١٩ | ١٢ | ١٨ |
| ٢ | تعليق على ما حدث. | ١٤ | ٤ | ٤ |
| ٣ | مقتل القمر. | ١٦ | ٨ | ٥ |
| ٤ | العهد الآتي. | ٩ | ٤ | ٣ |
| ٥ | أقوال جديدة عن حرب البسوس. | ٢ | ٤ | ١ |
| ٦ | أوراق الغرفة (٨). | ١٣ | ١٠ | ٦ |
| ٧ | قصائد غير منشورة. | ١٦ | ١٣ | ٦ |
| | المجموع | ٨٩ | ٥٥ | ٣٣ |

| م | المنزل | المقدار | المجموعة |
|---|---|---|---|
| ١ | الحياة | ١١ | ١، ٢، ٣، ٤، ٦، ٧ |
| ٢ | الحقيقة | ٩ | ٣، ٥، ٧ |
| ٣ | الحرية | ٩ | ٤، ٦، ٧ |
| ٤ | الكبرياء | ٧ | ١، ٢، ٥، ٦ |
| ٥ | الأمل | ٥ | ١، ٣ |
| ٦ | المجد | ٤ | ١، ٤، ٧ |
| ٧ | الزمان | ٤ | ١، ٦ |
| ٨ | المحال | ٢ | ٣ |
| ٩ | الشدة | ١ | ٢ |
| ١٠ | الوعي | ١ | ٢ |
| ١١ | الحب | ١ | ٣ |
| ١٢ | الخلود | ١ | ٣ |

لقد نزلت الشمس في مجموعات الديوان كلها؛ فلم يكن لمثل هذا الشاعر المسنون المؤمن بالحياة شعرًا وبالشعر حياة، أن يعمى عنها، ثم هي في مجموعات شعره مثلها في أبراج السماء: يطول منزلها؛ فيكثر ذكرها، ويقصر؛ فيقل!

## شَمْسُ الحَياةِ

ولقد كانت «الحياة» قبل سائر منازل الشمس (معانيها)، أطولها الذي بينها فيه.

قال أولًا:

«الشمس (هذه التي تأتي من الشرق بلا استحياء)

كيف ترى تمر فوق الصفة الأخرى

ولا تجيء مطفأه!

والنسمة التي تمر في هبوبها على مخيم الأعداء

كيف ترى نشمها فلا تسد الأنف

أو تحترق الرئه»[19]!

لقد كان ينبغي أن يطفئ الشمس مرأى الأعداء.

ثم قال ثانيًا:

«الشهور زهور على حافة القلب تنمو

وتحرقها الشمس ذات العيون الشتائية المطفأه»[20].

لقد قتلت الشمس المطفأة الزهور.

ثم قال ثالثًا:

«ها هو الرُّخ ذو المخلبين يحوم

ليحمل جثة ديسمبر الساخنه

ها هو الرخ يهبط

والسحب تلقي على الشمس طرحتها الداكنه»[21].

لقد حجبت السحب الشمس.

ثم قال رابعًا:

«يقال: لم يجئ

وقيل: لا بل جاء بالأمس

واستقبلته في المطار بعثة الشرف

وأطلقوا عشرين طلقة لدى وصوله

وطلقة في كبد الشمس

(لذا فإن الشمس لم تشرق علينا ذلك الصباح)»[22].

لقد عفّت الشمس عن الشروق.

إنه حين يكره الحياة ذليلة أولًا وثانيًا، ثم ينكرها مزيفة ثالثًا ورابعًا ـ حريص عليها غير مفرط فيها، ولكن عزيزة صادقة.

## شَمْسُ الحُقيقَةِ

ثم كانت «الحقيقة» منزل الشمس الثاني، الذي تبينها فيه.

قال أولًا:

«هي الشمس أم إنها التاج

هذا الذي يتنقل فوق الرؤوس إلى أن يعود

إلى مفرق الفارس العربي الشهيد»[23].

لقد تنازعت الرؤوس الشمس تاجًا.

ثم قال ثانيًا:

«نحن جميعًا نحجب ضوء الشمس ونهرب»[24].

لقد تداول الناس الشمس حجبًا وهربًا.

ثم قال ثالثًا:

«أني مشى تحوطه حاشية من النساء

يكسفن وجه الشمس أو يخسفن بالقمر

(لذا فإن الشمس لم تشرق علينا ذلك الصباح)»[٢٥].

لقد حجبت الحاشية الشمس.

إنه يجد أولًا الحقيقة قد تنازعتها طوائف مدعيها، ثم يرى ثانيًا وثالثًا سر ذلك أنهم يخافونها فينكرونها؛ فيزهد في الحياة، وهو الذي رأى أولًا الحقيقة تتبرأ من طوائف مدعيها جميعًا، لتنتسب إلى من بذل فيها حياته.

## شَمْسُ الحُرِّيَّةِ

ثم كانت «الحرية» منزل الشمس الثالث، الذي تبينها فيه.

قال أولًا:

«البسمة حلم

والشمس هي الدينار الزائف

في طبق اليوم

(من يمسح عني عرقي في هذا اليوم الصائف؟)

والظل الخائف

يتمدد من تحتي

يفصل بين الأرض وبيني»[٢٦]!

لقد وصف الطاهي اليومي، الشمس، ضمن المقادير.

ثم قال ثانيًا:

«كانت الخيل في البدء، كالناس

برية تتراكض عبر السهول

كانت الخيل كالناس في البدء

تمتلك الشمس والعشب

والملكوت الظليل»[٢٧].

لقد كانت الشمس للخيل في الزمان الأول.

ثم قال ثالثًا:

«عم صباحًا أيها الصقر المجنح

عم صباحا

هل ترقبت كثيرًا أن ترى الشمس

التي تغسل في ماء البحيرات الجراحا

ثم تلهو بكرات الثلج،

تستلقي على التربة،

تستلقي وتلفح!

هل ترقبت كثيرًا أن ترى الشمس لتفرح

وتسد الأفق للشرق جناحا؟

أنت ذا باق على الرايات مصلوبًا مباحًا»[٢٨].

لقد عجز الصقر المرسوم في العلم، عن أن يرى الشمس.

إنه يسخر أولًا من دعوى الحرية التي جرى عبيد قومه من ادعائها، على نظام رتيب، ثم يرى ثانيًا أهون تفريط في الحرية، بابًا عريضًا للعبودية، ثم يستفزهم ثالثًا بـذل العبوديـة إلى عـز الحرية.

## شَمْسُ الْكِبْرِياءِ

ثم كانت «الكبرياء» منزل الشمس الرابع، الذي تبينها فيها.

قال أولًا:

«ذهب الشمس العجوز انصهرا

وهوى فوق نفايات الثرى

وأنا أبكي على تل الرماد»[٢٩]!

لقد ذابت الشمس، وسالت على الأرض.

ثم قال ثانيًا:

«صار ميراثنا في يد الغرباء

وصارت سيوف العدو سقوف منازلنا

نحن عبّاد شمس يشير بأوراقه نحو أروقة الظل،

إن التويج الذي يتطاول

يخرق هامته السقف،

يخرط قامته السيف،

إن التويج الذي يتطاول

يسقط في دمه المنسكب»[٣٠]!

لقد غربت الشمس، فطأطأ لها العبّاد رأسه.

ثم قال ثالثًا:

«ما أقل الحروف التي يتألف منها اسم ما ضاع من وطن،

واسم من مات من أجله

من أخ وحبيب!

هل عرفنا كتابة أسمائنا بالمداد

على كتب الدرس؟

ها قد عرفنا كتابة أسمائنا

بالأظافر في غرف الحبس

أو بالدماء على جيفة الرمل والشمس،

أو بالسواد على صفحات الجرائد قبل الأخيرة

أو بحداد الأرامل في ردهات (المعاشات)،

أو بالغبار الذي يتوالى على الصور

المنزلية للشهداء

الغبار الذي يتوالى على أوجه الشهداء

إلى أن تغيـب»[٣١]!

لقد كانت الشمس ميتة حين كتب عليها المجاهدون أسماءهم.

إنه يبكي أولًا انتكاس الكبرياء التي شيخت وبليت، ثم يسخر ثانيًا من أمته التي كانت تجتهد في الكبرياء، فصارت تجتهد في الذل، ثم يفضح ثالثًا ضياع جهاد من يطلب كبرياء ميتة!

## شَمْسُ الْأَمَلِ

ثم كان «الأمل» منزل الشمس الخامس، الذي تبينها فيها.

قال أولًا:

«والدم كان ساخنًا يلوث القضبان

هذا دم الشمس التي ستشرق، الشمس التي ستغرب،

الشمس التي تأكلها الديدان»[٣٢]!

لقد أرسلت الشمس الغاربة دم شروقها القادم.

ثم قال ثانيًا:

«فأنا مثلك كنت صغيرا

أرفع عيني نحو الشمس كثيرا

لكني منذ هجرت بلادي

والأشواق

تمضغني، وعرفت الإطراق

مثلك منذ هجرت بلادك

وأنا أشتاق

أن أرجع يومًا ما للشمس

أن يورق في جدبي فيضان الأمس»[٣٣].

لقد تعالت الشمس وأغرت الناظر.

إنه يتمسك أولًا بالأمل على رغم يأسنا منه حينًا، وعلى رغم ضياعه أمامنا حينًا، ثم يذكرنا ثانيًا كيف تعلق به، وكيف يشتاق إليه كلما باعده.

## شَمْسُ المُجْدِ

ثم كان «المجد» منزل مشرق الشمس السادس، الذي تبينها فيه.

قال أولًا:

«في الليل، في حضرة كافور، أصابني السأم

في جلستي نمت ولم أنم

حلمت لحظة بكا

وجندك الشجعان يهتفون: سيف الدوله

وأنت شمس تختفي في هالة الغبار عند الجوله

ممتطيًا جوادك الأشهب، شاهرا حسامك الطويل المهلكا»[34].

لقد كانت الشمس في الميدان.

ثم قال ثانيًا:

«اللوحة الأولى على الجدار:

ليلى (الدمشقيه)

من شرفة (الحمراء) ترنو لمغيب الشمس،

ترنو للخيوط البرتقاليه

وكرمة أندلسية، وفسقيه

وطبقات الصمت والغبار»[35]!

لقد استغرقت الشمس الغاربة عين سليلة المجد.

ثم قال ثالثًا:

«ثوبها الأخضر لا يبلى، إذا خلعته رفت الشمس ثقوبه»[36].

لقد بقيت الشمس علاجًا.

إنه يبين أولًا كيف يغيب العربي عن حاضره الأليم، ويعيش في ماضيه المجيد، ثـم ثانيًـا كيف يتشوق لذلك المجد الآفل، ثم ثالثًا كيف يجدر بصاحب ذلك المجد أن يستغيثه ليستعيده.

# شَمْسُ الزَّمانِ

ثم كان «الزمان» منزل الشمس السابع، الذي تبينها فيه.

قال أولًا:

صديقي الذي غاص في البحر مات!

فحنطته

(واحتفظت بأسنانه

كل يوم إذا طلع الصبح آخذ واحدة

أقذف الشمس ذات المحيا الجميل بها

وأردد: «يا شمس، أعطيك سنته اللؤلؤية

ليس بها من غبار سوى نكهة الجوع!

رديه رديه، يرو لنا الحكمة الصائبه»

ولكنها ابتسمت شاحبه)[٣٧]!

لقد أبت الشمس رده.

ثم قال ثانيًا:

الطيور معلقة في السموات

ما بين أنسجة العنكبوت الفضائي، للريح

مرشوقة في امتداد السهام المضيئة

للشمس،

(رفرف

فليس أمامك ـ

والبشر المستبيحون والمستباحون صاحون ـ

ليس أمامك غير الفرار

الفرار الذي يتجدد كل صباح)[٣٨]!

لقد نفذت سهام الشمس في الطيور، وأخذتها إلى المدى.

إنه يائس أولًا من أن يمكنه الزمان من غايته، ثم خاضع ثانيًا لدوران رحاه.

## شَمْسُ المُحالِ

ثم كان «المحال» منزل الشمس الثامن، الذي تبينها فيه.

قال:

«وطفلًا كنت، كالأطفال

ومركبة من الكلمات تحملني لعرش الشمس»[٣٩].

لقد أبلغته مركبة الكلمات عرش الشمس.

إنه يعجب لحاله صغيرًا: كيف جرأه الشعر على طلب المحال!

## شَمْسُ الشِّدَّةِ

ثم كانت «الشدة» منزل الشمس التاسع، الذي تبينها فيه.

قال:

«فاجأني الخريف في نيسان

وطائر السمان

حط على شواطئ البحر الشماليه

طلبت من تحبه نفسي قبيل النوم

فلم أجد إلا عذاب الصوم

طلبت من تحبه نفسي

(في الظل والشمس)

فلم أجد نفسي»[٤٠]!

لقد كانت نفسه هي من أحبه في الظل والشمس.

إنه يؤثر ألا يهرب من الموت، وأن يعانيه وحده، كما عانى الحياة رخية وشديدة وحده.

## شَمْسُ الْوَعْيِ

ثم كان «الوعي» منزل الشمس العاشر، الذي تبينها فيه.

قال:

«أيها العشب الذي ينضح حمى

شمسنا مطفأة العينين دوما»[٤١]!

لقد ظلت الشمس مطفأة العينين.

إنه ينعى على الساسة غفلتهم عما يدعوهم إليه في سبيل مصلحة أمته التي رصد لها حياته.

# شَمْسُ الحُبِّ

ثم كان «الحب» منزل الشمس الحادي عشر، الذي تبينها فيه.

قال:

«(كان يا ما كان)

أنه كان فتى

لم يكن يملك إلا مبدأه

وفتاة ذات ثغر يشتهي قبلة الشمس

ليروي ظمأه»[42].

لقد تمنت الفتاة الشمس.

إنه يتذكر كيف استغرقه قديمًا همه، وشغله عن سائر مشاعره، حتى صادفته فتاة باحثة عن الحب الطاهر.

# شَمْسُ الخُلودِ

ثم كان «الخلود» منزل الشمس الثاني عشر الأخير، الذي تبينها فيه.

قال:

«هواي له الشمس تنهيدة

إلى اليوم بالموت لم تؤمن»[43].

لقد كانت الشمس نفسها تنهيدة هواه.

إنه يفخر بخلوده وإخلاصه له.

# خاتمةٌ

لقد مضى أمل دنقل في إنزال الشمس منازلها، وتحميلها الأضداد، على ما سخرها الله له ـ إلى قسمين من المنازل (المعاني): شارقي، وغاربي:

أما الغاربي فالحياة ذليلة أو مزيفة، والحقيقة مدعاة متنازعة أو مخوفة منكرة، والحرية مدعاة أو مفرطًا فيها أو ضائعة، والكبرياء متنكسة أو ضالة أو ميتة، والزمان ميؤوسًا منه أو مخضوعًا له، والوعي غائبًا.

وأما الشارقي فالأمل متمسكًا أو متعلقًا به أو مشتاقًا إليه، والمجد معيشًا فيه أو مشوقًا إليه أو مستغاثًا مستعادًا، والمحال متجرأ عليه، والشدة مكافحة، والحب مقبلًا، والخلود طائعًا.

من ثم ينبغي ألا يُعدَّ أمل دنقل في شعراء الرفض الساخطين[٤]، ولا في شعراء القبول الراضين، بل في شعراء الدنيا (الدنيويين) الذين تتقلب بهم يسارًا ويمينًا فيرضون ويسخطون.

ومن ثم ينبغي أيضًا لمن يراعي الديوان كاملًا في وعي رؤية الشاعر وأسلوبه ـ وهو أسد النقد منهجًا ـ ألا يعد الشمس صورة لمعنى (مشرق) من تلك المعاني، فلم تعد مفردة البناء، ولا مقيدة بأغلال الجهاد[٥] ـ بل أن يعدها رمزًا للدنيا التي عاش لها أمل دنقل، يساعد على وعي رؤيته وأسلوبه؛ فقد صارت مركبة البناء، مطلقة من أغلال الجهاد.

رحم الله الشاب الصعيدي الشاعر المسنون، ابن الشيخ الصالح، وتجاوز عن سيئاته، ولم يحرمنا أجره، ولم يفتنا بعده، آميـن!

# حَواشي المُقال

١ - سورة الشمس، الآية (١).

٢ - سورة النمل، من الآية (٢٤).

٣ - سورة البقرة، من الآية (٢٥٨).

٤ - سورة الأنعام، من الآية (٧٨).

٥ - عبدالباقي (محمد فؤاد): المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة شمس.

٦ - صقر (الدكتور محمد جمال): نجاة من النثر الفني، الجزء الأول، ص٦.

٧ - ديوانه.

٨ - ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرّم المصري): لسان العرب، مادة شعر.

٩ - ديوانه.

١٠ - ديوانه.

١١ - ديوانه.

١٢ - ديوانه.

١٣ - ابن منظور، مادة خيف.

١٤ - آدم (الدكتور سلامة): أوراق من الطفولة والصبا، سفر أمل دنقل، بتحرير عبلة الرويني، طبعة الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٩٩م، ص٢٢٣.

١٥ - سالم (الشاعر حلمي): الحداد يليق بالشعراء، سفر أمل دنقل، ص١٢٤.

١٦ - حجازي (أحمد عبدالمعطي): رسالة إلى أمل دنقل، سفر أمل دنقل، ص١٠.

١٧ - السابق، ص١١.

١٨ - دنقل (أمل): الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة أطلس بالقاهرة، إيداع سنة ١٩٩٥م، نشرة دار العودة ببيروت، ومكتبة مدبولي بالقاهرة. ولقد راعيت في ترتيب المجموعات، تواريخ طبعاتها الأولى، كما بينتها الرويني (الأستاذة عبلة): بيبلوجرافيا، سفر أمل دنقل، ص٦٩٧. ولقد طبعت المجموعة الأخيرة «قصائد غير منشورة»، في مقدمة الديوان، وهي طائفة مختلفة الأزمان قدامة وحداثة، لم يثقفها أمل على وجه العموم، بحيث يقبلها في أي من سائر المجموعات، وإن ثقف منها بعض مقاطع قصائدها، وسلكه في مقاطع قصائد بعض مجموعاته الأخرى، من مثل بعض مقاطع قصيدة «العراف الأعمى»، المسلوك في قصيدة «سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس»، من مجموعة «العهد الآتي» ـ ثم إن «قصائد غير منشورة»، تحتمل أن تزيد بما يجترئ على إضافته ناشرها، مما لم يثقفه فينشره أمل، كأكثر المجموعة الخامسة «أقوال جديدة عن حرب البسوس»؛ ولذلك كله أخرت رتبتها، وأرى ألا نمكنها من إضلالنا عن سواء الحقيقة، متى أرخنا شيئًا من الظواهر ].

١٩ ـ لا وقت للبكاء، مج٢، ص٣١٧. ٢٠ ـ سفر ألف دال، مج٤، ص٣٥٢.

٢١ ـ ديسمبر، مج٦، ص٤٥٢.

٢٢ ـ الزيارة، مج٧، ص٥٢، ولتراجع في هذا المشرق كذلك ص٢١٢، ٩٧، ٤٨٣.

٢٣ ـ أقوال اليمامة، مج٥، ص٤١١. ٢٤ ـ ماريا، مج٣، ص١٠٩.

٢٥ ـ الزيارة، مج٧، ص٥٢، ولتراجع في هذا المشرق كذلك، ص٩، ١١، ١٢، ١٣.

٢٦ ـ سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس، مج٤، ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.

٢٧ ـ الخيول، مج٦، ص٤٦٠ ـ ٤٦١.

٢٨ ـ بكائية لصقر قريش، مج٦، ص٤٧٣، ولتراجع في هذا المشرق كذلك، ص ٤٦٢، ٤٨، ٥٨، ٦٦.

٢٩ ـ العشاء الأخير، مج١، ص٢٢٣. ٣٠ ـ أقوال اليمامة، مج٥، ص٤١٤.

٣١ ـ قالت امرأة في المدينة، مج٦، ص٤٧٩، ولتراجع في هذا المشرق كذلك ص١٥٣، ٢٢٧، ٢٧٤، ٤٢٣.

٣٢ ـ أشياء تحدث في الليل، مج١، ص٢١٧.

٣٣ ـ ماريا، مج٣، ص١١١.

٣٤ ـ من مذكرات المتنبي (في مصر) مج١، ص٢٤٠.

٣٥ ـ رسوم في بهو عربي، مج٤، ص٢٨٦.

٣٦ ـ لا أبكيه، مج٧، ص٧٠، ولتراجع في هذا المشرق كذلك ص٢٣٥.

٣٧ ـ إجازة فوق شاطئ البحر، مج١، ص١٨٦.

٣٨ ـ الطيور، مج٦، ص٤٥٦، ولتراجع في هذا المشرق كذلك ص١٩٢.

٣٩ ـ قلبي والعيون الخضر، مج٣، ص٩١، ولتراجع في هذا المشرق كذلك ص١٢٢.

٤٠ ـ فقرات من كتاب الموت، مج٢، ص٢٥٣.

٤١ ـ حكاية المدينة الفضية، مج٢، ص٢٩٣.

٤٢ ـ طفلتها، مج٣، ص٨١. ٤٣ ـ رسالة من الشمال، مج٣، ص١٢٢.

٤٤ ـ عوض (الدكتور لويس): شعراء الرفض، سفر أمل دنقل، ص٥٢.

٤٥ ـ زايد (الدكتور علي عشري): عن بناء القصيدة العربية الحديثة، طبعة ١٩٨١م، نشرة مكتبة العروبة بالكويت، ص١٢٦.

# عَمّي ياسينُ

على رغم أمراضه البادية والخافية، دلف قبلي إلى محفل مناقشة رسالتي للماجستير سنة ثلاث وتسعين وتسعمئة وألف للميلاد، متوكئا ذات اليمين على عصاه، وذات الشمال على أبي.

عرّفته إلى ضيفي العظيم محمود محمد شاكر، رحمه الله!

عمي ياسين مندور، زوج خالتي، من قرائكم في الثلاثينيات.

أسرها في نفسه، ثم أبداها.

ألا تكفي «عمي ياسين مندور»!

يا لها زلة!

أين أخفي وجهي من سائر أهلي الذين يناديه فيهم بالأبوة من هم مثلي بل أكبر!

يا ضيعة ما أدبني!

ياسر أبر منك!

أجل. غفر الله لي!

ليت ياسرا ابنه يعلم ما قاله فيه، ويجهل ما فعله لي!

لقد كان لي بحدائق الزيتون من القاهرة، معلما ودودا رحيما.

لم يكن في ذاكرتي طفلا عن منزله المشرف على طريق القطار، إلا أنه شقة يسرى من أعلى طوابق مبناها الثلاثة، صغيرة المساحة، ضاحية للشمس، لينة للقطار ـ تمشي إليه بحذائه طويلا، أسرتي الآيبة من بني سويف إلى المنوفية، المتلبثة بالقاهرة للزيارة، فيصخب فيه اثنا عشر صوتا لو ماد بها لعذرته المنازل!

ثم لما أقمت بجمعية رعاية الطلاب، طالبا بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة، فارتحت إليه ـ أكثرت زيارته، حتى لتستقل بذاكرتي أحجار وأشجار وقضب قطار كان بخاريا عنيفا فصار كهربائيا لطيفا.

كانت بالمملكة السعودية أسرتي كلها إلا أنا وأختي الطالبة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعتي نفسها، فكنت مرة أمكث بمقامي، وربما زرت أختي بمقامها، ومرة أرحل إلى قريتي، ومرة أزوره.

أملأ حقيبتي الرياضية الحمراء التافهة، كتبا قيمة وملابس متوسطة، ثم أذهب فأركب إلى رمسيس الحافلة الخامسة عشرة،حافلة دار العلوم (موقفها أمام بابها، وركابها طلابها غير القاهريين الذين موقف أحمد حلمي خلف ميدان رمسيس منتقلهم إلى بلادهم)، ثم أمشي قليلا لأركب قطار عزبة النخل الذي يمر بحدائق الزيتون، فأعتلي في سبيل ذلك الجسر المحاذي لتمثال رمسيس الثاني، فأطاوله، فأعلوه.

ها أنا ذا فوقك، أيها الفرعون العظيم!

ولدت شاردا. قالت لي أمي مرة: كنت وأنت رضيع، إذا حملت بكيت، وإذا وضعت كففت! ربما قطع حملي شرودي، ووصله وضعي!

«وأنا في رياض المثال الغريب أحاول سورة هاء الشهود بآية راء الشرود» براء ص ٦٢.

لذلك سهلت علي آنئذ الحافلة، وصعب القطار؛ إذ أبقى فيها حتى موقفها (ميدان رمسيس)، فينزل بي منها الركاب والسائق والتابع، أما القطار فلو لم أتعلق بمعالم طريقه، لتنازعتني الجهات!

أنزل من القطار، فأمشي بحذاء طريقه، سعيدا باتصال الحاضر والماضي، إلى شارع أبادير، ثم أختطف درج المبنى الثالث، إلى الطابق الأعلى والشقة المفتوحة الباب غالبا، وكأنه رسول أبواب دور قريتنا إلى أبواب شقق القاهرة، يدعوها إلى الانفتاح! ولو صادفته مغلقا، لجذبتني على ظهره لوحة نحاسية باسم الرائد ياسين مندور!

أجل، معلمي الودود الرحيم، كان ضابطا بالجيش المصري. لكن ظن برجل عاقل عالم فنان ضابط.

لقد بقيت سبع سنوات، منذ أن طلبت بالقاهرة إلى أن تزوجت فأقمت بمنوف، زوارا له دوارا عليه بما يحدث لي، أقص عليه كالسائل، فيقص علي كالمجيب، حتى اشتملت على طرف عزيز من علمه وفنه، كأنه أمنية مصطفى صادق الرافعي «أَنْ تُصاحِبَ عالِمًا عامِلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَحْفَظَ مِئَةَ كِتابٍ»، أخطأها، فأصبتها هبة لم أطلبها جهلا بها لا غنى عنها.

كنت بجواب عينه أعرف قيمة ما قلت، ثم بجواب لسانه أعرف ما ينبغي أن أقول.

كانت نظرته أفصح من محككة الحكيم، وكلمته أشعر من حولية الشاعر:

- اخْرُجْ إِلى مَوْعِدِكَ قَبْلَه بِزَمانٍ؛ فَرُبَّما طَرَأَ عائِقٌ.

ثم يضبط لي منبهه، ويتفقد يقظتي إلى ما يعرف من مواعيدي.

- مِنْ لَمَعانِ حِذائِه يُعْرَفُ الْأَنيقُ.

ثم يقتطع لي من قطيفة عزيزة لديه ، قطعة بوصية أن أحملها معي دائما ألمع بها حذائي، فأفعل، لأعرف قريبا أنه صنع ذلك نفسه لأخوي!

- لا يَضُرُّ الْأَنيقَ عَجْزُه عَنْ تَعْديدِ الْأَثْوابِ؛ فَثَوْبٌ واحِدٌ نَظيفٌ مَكْوِيٌّ، فيه كِفايَتُه.

ثم تختدعني خالتي إلى حقيبتي الرياضية الحمراء التافهة، فتستخرج أثوابي، فتغسلها وتنشرها، فلا أؤوب بها إلى مقامي إلا نظيفة مجهزة.

- اسْتَوْثِقْ مِنْ نَظافَةِ أَدَواتِكَ.

ثم يأخذ كوب شاي غسلته، فيريني كيف تتعثر بالماء على زجاجه دوائر الوسخ الخفي، ثم يدلكه بليفة مرغية، ثم يغسله ويريني كيف يجري على زجاجه الماء لامعا كأنما صنع الآن.

- سوءُ الطَّعامِ مِنْ سُبُلِ الْحِمْيَةِ!

ثم ينصح لزوجه الصناع المراعية نصيحة الطبيب له، أن تسيء هي صناعة الطعام ليقلل هو أكله!

- النّاسُ مُخْتَلِفونَ طاقَةً.

ثم ينصح لي ألا أهلك نفسي بحملها على ما يطيقه غيرها ولا تطيقه.

- يَنْبَغي لِلْمُسْتَمْتِعِ أَنْ يَنْشَطَ.

ثم ينصح لي أن أرتاح في الجلوة.

- لَيْسَ في الْعُرْيِ مِنْ جَمالٍ.

ثم يستبعد لذلك أن تتجرد إغواء الغواني.

- لَيْسَتِ الرِّقَّةُ مِنْ أَوْصافِ الرِّجالِ.

ثم يعيب علي وصفي له بالرقيق، في خلال إهدائي إياه مجموعتي الشعرية الأولى.

- مِنَ الرِّجالِ مَنْ لا يَبوحُ بِحُبِّهِ.

ثم ينصح لي ألا أنتظر بوح بعض الرجال بحبه.

- لِكُلِّ كَلامٍ رِجالٌ.

ثم يحكي لي كيف انتظمه مرة صف رجال يشترون خبزا، فسمع أحدهم يسيء القول في النساء، حتى ليجعل المرأة منهن نعلا يلبسها الرجل! فعاتبه على ذلك بأنها التي يحتضنها كل مساء! فغضب الرجل: تقصد أنني وامرأتي نعلان! فأنشده:

لَيْلى عَلى دينِ قَيْسٍ فَحَيْثُ مالَ تَميلُ
وَكُلُّ ما سَرَّ قَيْسًا فَعِنْدَ لَيْلى جَميلُ

فأنكر عليه الرجل أن يسب دينه، ولولا السن لربما ضربه أو سبه!

- والِدُكَ عالِمٌ فَنّانٌ.

ثم ينعى علي تقصيري عما ينبغي من ملازمته ومحاورته.

- كانَ الْعَقّادُ فاتِكًا!

ثم يحكي لي كيف كتب في الفلسفة فآخذه بقلة الاطلاع بعض الفلاسفة ، فجاءه من مقالته التالية بما أعجزه مما قرأه بين المقالتين.

- إِنَّما نَبَّهَ الْخوليَّ إِلى بِنْتِ الشّاطِئِ اجْتِهادُها.

ثم يحكي لي كيف سأل الخولي تلامذته عما قرأوه، فأدهشته دونهم بما قرأت، بنت الشاطئ تلميذته التي تزوجها بعدئذ.

- الْقِراءَةُ أَهَمُّ مِنَ الطَّعامِ.

ثم يحكي لي كيف أنفق في الكتب مال الطعام راضيا بالجوع.

- لِلْكِتابِ حُرْمَةٌ.

ثم يعلمني كيف أعامله وأحميه، لا يسمح بإعارة كتبه، وإن أهداني منها.

- يَنْبَغي لِلشّاعِرِ أَنْ يَخْتارَ الْكَلِماتِ السَّهْلَةَ الْقَريبَةَ مِنَ النّاسِ.

ثم يعيب علي في أوليتي وحشية كلماتي، ثم يضحك بعدئذ من تحدرها سهلة قريبة.

- لَيْسَ أَعْذَبَ في الْموسيقا مِنْ ضَحِكِ الْأَطْفالِ.

ثم يحتفي بأطفال أبنائه، يحدثهم ويسمع، ويستثيرهم ويثور.

- الْعِصْيانُ أَدْعى إِلى الصَّدَقَةِ مِنَ الطّاعَةِ.

ثم يرى السائلين على أبواب المعاصي أكثر وأحكم منهم على أبواب المساجد.

- لَيْسَتْ مَراتِبُ الْخُشوعِ للهِ، عَلى حَسَبِ السُّلْطانِ أَوِ الْجاهِ أَوِ الْعِلْمِ.

ثم يذكر سماكا أشعث أغبر أذفر، صادفه حيث يصلي، أحسن منه صلاة.

ماتت خالتي — رحمها الله! — بالقاهرة، فانتظرناها بقريتنا حيث مثواها، حتى وصل ركبها، ثم صلينا عليها ودعونا لها، ثم دفناها. لطف الله بكل أسرة استرد منها سبب رحمتها! رأيت صغيرتها تنظر إلى جثمانها الطاهر نحمله، فرأيت روحها يفر من عينيها إليها، وادة لو حيت به دونها. رأيت أميرها قد أعجزته قدماه فقعد، وأعجزته عيناه فبكى، حتى إذا ما رأى أبي انتحب:

ماتت أم ياسر! رحمها الله!

بقي عمي ياسين وحيدا إلا من رعاية أهله، حتى أخذه ابنه ياسر ليعيش معه في المملكة السعودية حيث يعمل.

زارنا بعدئذ في منوف مرة، فهرعت إليه وابتهجت به كمن انتبه من طول غفلة، فوجدته ملولا كمن تغافل من طول انتباه!

مات عمي ياسين ـ رحمه الله! ـ هذه السنة الحادية والألفين للميلاد، في صحبة ياسر، وأنا بسلطنة عمان حي عجز عنه، فأف لها حياة دنيا!

## شِعْرُ الشَّبابِ دَمُ الْعَقْلِ وَوَجْهُ الْجُنونِ

«يأتي الشبابُ الأقورين (الدَّواهي) ولا تَغْبِطْ أخاك أَنْ يُقالَ حَكَمْ».

صدق سيدنا المرقش الأكبر!

وهل أذهى وأَمَرُّ من نار الأفكار، يَقْتَبِسُها الشباب بِشِرَّتِهِمْ (نشاطِهم المَشوبِ حِدَّةً ونَزَقًا وسَخَطًا)، ويطفئها الشيوخ بحكمتهم (كَسَلِهِمُ المَشوبِ لينًا ورَزانةً ورِضًا)!

«وإذا الشَّيْخ قال أُفٍّ فما مَلَّ حياةً وإنما الضَّعْفَ مَلا».

صدق سيدنا أبو الطيّب المتنبي!

وَيْلي على حِكْمة الشُّيوخ، ومَيْلي إلى شِرَّة الشَّباب!

- تأمل «الغِياب» (فِقْدانَ الصاحب) بين أيدي الهَنائيّ والغافريّ واللُّوَيهيّ:

أما الهنائي فلم يغِبْ صاحبُه، بل صَعِد:

«رَفَعَتْكَ النُّجومُ إليها»،

لما ضاق عن احتمال سطوة الذل، وأبى خوض حَمْأة العَمى:

«وطنٌ فيه الشعبُ

يلقُطُ عُلَبَ البيرةِ والسفنِ ابْ

قل لي: كيفَ يُحَبُّ؟».

وأما الغافري فلم يغب صاحبه، بل استنفرَتْه نُبوءةُ حَدْسه:

«عيناكَ أوسعُ من نبوءة

وخُطاكَ أسرعُ من دمِ التاريخ».

فَنَفَرَ يَنتزِعُ الأقْدارَ منْ مَكامنها:

«ونصير أقدارا وأبطالا لملحمة الحكايا القادمات».

وأما اللويهيُّ فلم يغِبْ صاحِبُه، بل سَبَقَه، ولولا ثلاثٌ مُبْقياتٌ ما تأخّر عنه:

فمنهن ذكراه:

«أصْحو من الصَّحْو

أهمِس:

ذاكرٌ

ذاكرٌ».

أي أن يظل حياته ذاكرًا صاحبه الغائب، لاينساه.

ومنهن سَكَراتُ النهاية:

«كلما ازرقَّ خيطُ الحكايةِ

يَسَاقطُ الوقتُ

أسئلةً وحنينًا

ويأتي الكلامُ أرقَّ منَ الخَمْر».

أي أن يبقى حتى يُدْرِكَ مَساقطَ الحُجُب عن خبايا الحياة.

ومنهن بذل النفس:

«لا أحدٌ يُبَعْثِرُ صمتَ

هذا القلبِ

أتركه وحيدًا

في البراري

يستلذُّ بما يشاءُ منَ الضَّحايا

والدماءِ

يُبادِلُ البدوَ الكلامَ

وَيَنْحني للريحِ

عَلَّ

الريحَ

تمنحُهُ الرحيلَ المُشتَهى».

أي ألا يمنعه من فنائه في غايته وجلٌ، راجيًا أنْ لو رجَع ففني فرجع ففني،هكذا مرارًا، ليذوق تلك الثلاث، من لذة ما يجد.

- ثم تأمل «الحُضورَ» (وِجدانَ الصاحبة) بين أيدي الرَّواحيِّ والزِّدجاليِّ:

أما الرواحي فيجد لدبيب صاحبته فيه، مثلَما يطفئ الماءُ نارَ الظمأ، ولدبيبـه فيهـا، مـثلما يكفل الدم عمل القلب:

«حلمت

بأنكِ آخِرُ

قطرة ماءٍ

وأني بُكاءُ البنفسجْ،

صحوتُ، وجدتُ دمي نائمًا

قُرْبَ قلبك».

ويحمل اسمَها شِعارَ هداية:

«بَعْثَرني الحُلْمُ، لَمْلَمَني اسمُكِ

لَمّا دعوتُكِ للشاي».

وأما الزِّدْجاليُّ فيَبْذُلُ لصاحبته جُثْمانَه، عوذةً من أن يغتالها الفِراق:

«لا تَدْفِنيني إذا مِتُّ حبًّا، وخلِّي ضَريحي رُموشَ

الرياحِ

أعلِّق أيقونتي فوقَ صَدْرِكِ

كيْ لا أموت».

إنه يكتمل بها ويتأذّى بحياة الكائنات حولها، حتى لَيَتَمَنّى أنْ يحميَها الموتُ:

«يداكِ هَديلٌ منَ الأنبياء
وشعركِ آخرُ قافلةٍ للقلوب الصغيرةِ
عيناكِ مَرْفأُ حب صغيرٍ
تَعالَيْ لنقتسمَ الموتَ بيني وبينكِ
نهرُبُ نحوَ البعيدِ القَصيِّ المُبارَكِ بالحبِّ».

- ثم تأملِ «السَّخَطَ» (عِصيانَ الصاحبةِ) بين أيدي الظُّفْريِّ والساعديَّة:

أما الظفري فيَجترُّ كلَّ يومٍ شعائرَ الذي سَبَقَه، عاجزًا عن صاحبته، تَعِسًا بسَخَطِه:
«وأعبُدُ هَمّي
أُصلّي صلاةَ المُنى الكافرهْ
وأقرأُ فيها كلامَ الحبيبْ».

حتى لَيَسْخَرُ مِمَّن يَغْدو بالأمل أو يَروح:
«وقام الألى يرقصونْ
ويستقبلون الصباح المريض بقهوة عشقٍ وأحلامهم تائههْ
وتضحك شمس الصباح عليهم
فقد خادَعَتْهُمْ وعرَّتْهُمْ من أمانيهمُ الضائعه».

وأما الساعدية فتلعن الاستكانة التي حظيت عند صاحبتها، حُظْوة أذكار الصباح والمساء:
«نَتَسَلّى،
كلُّ ما في الأمر أنّا نتسلى
نَنْفُثُ التَّعويذةَ الأولى وندعو
إيهِ ميقاتَ الهزيمهْ
إيهِ وحيَ الإِنْتفاضهْ».

حتى لَترجو أن تنشقَّ الكرامة عن لحظة بوح تبلع الاستكانة والمستكينين:

«ذَوّبينا

لحظةَ البَوْحِ الأخيرهْ

كرذاذٍ يتلهّى

في كـؤوسِ العارِ والذلِّ الحقيره

فتّشي الدَّرْبَ الذي يشتدُّ صَمْتا».

- ثم تأمل «الجَدَلَ» (طاعةَ الصاحبةِ) بين أيدي الكَعْبيّ والخَروصيّ:

أما الكعبي فيرى الحَجَرَ والشَّجَرَ والحَضَرَ والمَدَرَ، في مثل شوقه إلى صـاحبته، وفي مثـل شوقها إليه، فيَمزُج بالكائنات نفسَه مرةً، فتَنْتَسِجُ بها عِشقًا وشَوقًا، بُرْدةٌ منَ النعيم واحدةٌ:

«قريبًا ستعشـق نخلاتُنـا امـرأةً وغَريبًـا

وتـــربطُ ريـــحُ نَـــدى سَـــغْفةٍ قمـــرًا

واشـــتهاءاتِ رمـــلٍ لِشَـــقِّ السَّـــماءِ

أخفَّ منَ الريشِ كنتُ تُطَيِّرُني الطُّرُقـاتُ

وأثقـــلَ مـــنْ قُبلَـــةِ الغُربـــاءِ أعـــود».

ويمزُجُ بالكائنات نفسَ صاحبته مرةً أخرى، فتنتسج بها عشقًا وشوقًا كـذلك، الـبردةُ نفسها:

«وعينُكِ يلبَس فيها الرجاءُ

ظلالَ الصُّدور التي ما تزالُ تحنُّ إلى خضرة السِّدرِ

فوقَ العُبورِ

وبينَ التِّلال».

وأما الخَروصيُّ فيرى العشق كما رآه الفارسُ العربيُّ القديم (الذي دان بدينه زمانًا طويلا الفارسُ العَجَميُّ الجوّالُ)، أمانةً حَمَلها فحَماها في حبّة قلبه، على حينَ عجز عنها غيره:

«لم أبكِ فيها ولم أحزنْ على قدري لأن عشقك مهدي إن قسا الأجلُ

أمضي به في دَياجيرِ الحياة فلا هَمٌّ يُقَلْقِلُ قلبي لا ولا مَلَـلُ».

وهو على العهد مقيم، فإذا ما أُحيط به صَدَعَ بها وَقَفَ عليه حياته، راضيًا بالهلاك:

«لكنّني وعُبابُ الدهرِ مُنسجِمٌ، لا يعْتري سُفُني يأسٌ ولا كَـلَلُ

وإن أتى الموتُ يومًا كي يعانقني همستُ: خُذْني دُجًى والبَدْرُ مُكتملُ».

- تأمل نارَ «الغِيابِ، والحُضورِ، والسَّخَطِ، والجَذَلِ» – وهي أضْدادٌ خُصومٌ ـ بين أيـدي أولئك الشباب، كيف اقْتَدَحوها بزَنْد اللغة، غيرَ عابئين بزَمْهَرير العادة، على حين يـؤثِر الشيوخُ السلامةَ، غيرَ عابئين بفريضة الجهاد، وإنما نُصِرنا بالشباب!
- ثم تأمل «ثقافةَ الخلودِ العربيّ» بين أيدي الهنائي واللويهي والظفري والساعدية والكعبي والخروصي:

أما الهنائي فقد قال:

«هَلْ أتاكَ حَديثُ العباءات».

فأشعلَ تعبيره عن فقدانه صاحبه الذي تقدَّس به اللهوُ، بمُناصاة قول الحق — سبحانه، وتعالى! ـ: {هَـلْ أَتَـاكَ حَـدِيثُ}، الـوارد ثـلاث مـرات في الآيـات (١٥، ١٧، ١)، مـن سـور النازعات والبروج والغاشية، على الترتيب.

ثم قال:

«قُــــلْ أعــــوذُ بِــــرَبِّ الغَسَــــقْ

الندى زَبَدُ الصَّمت يَرْجِعُ بـالنوم للشـمسِ

خبـزًا وثرثـرةً وحنينًـا تُوزِّعُـه في الشَّـفَقْ».

فأَشْعَلَ تعبيره عن وحشته، بمُناصاة قول الحق — سبحانه، وتعـالى! ـــ: {قُـلْ أَعُـوذُ بِرَبِّ}، في الآيتين الأوليين من سـورتي الفلـق والنـاس، وإن ورد في سـورة المؤمنـون قولـه ـــ

سبحانه، وتعالى! ـ: {قُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ} ـ وعوّذه، وهو الخائف أن يضعف بفقدان صاحبه عن احتمال الحياة. وإنما أبدل من الفلق النديّ، الغسقَ الخفيّ، تنبيهًا على زمان الغياب المخيف.

وهو قد بنى قصيدته على رفض الموت وقبول الرَّفْع، أخْذًا من قول الحق – سبحانه، وتعالى! ـ في سيدنا عيسى ـ عليه السلام! ـ ولاسيما في الآية (١٥٨) من سورة النساء: {رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

ثم قال:

«سنرشُّ على قبرك الخمرَ حتى تصيرَ عُروقُكَ آنيةً من خَزَفْ».

فأشعل تعبيره عن معاهدة صاحبه على الذكرى والوفاء، بمُناصاة قول سيدنا أبي محجن الثقفيّ:

«إذا متُّ فادْفِنّي إلى جَنْب كَرْمةٍ تُرَوّي عِظامي في المات عُروقُها
ولا تَـدْفِنَنّي بـالفَلاةِ فـإنّني أخـافُ إذا مـا مـتُّ ألا أذوقهـا».

وأما اللويهي فقد سمى قصيدته «ولولا ثلاثٌ»، فأشعل تعبيره عن اعتذاره لصاحبه عن تأخره عنه، بمُناصاة قول سيدنا طرفة بن العبد:

«ولولا ثلاثٌ هُنَّ منْ عيشةِ الفَتى وجَدِّكَ لم أحْفِلْ مَتى قامَ عُـوَّدي
فمنهنَّ سَبْقِي العاذلاتِ بشَرْبـةٍ كُمَيْـتٍ متـى مـا تُعْـلَ بالمـاءِ تُزْبِـدِ
وكَـرّي إذا نـادى المُضـافُ مُحَنَّبًـا كَسـيدِ الغَضـا نَبَّهْتَـهُ المُتَـوَرِّدِ
وتَقْصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تحتَ الخِبـاءِ المُعَمَّـدِ».

ولكنه خالفه في جنس الثلاث المبقيات.

وأما الظفري فقد قال:

«وأقبلَ عيد
وصَلّى على روحيَ العاثره».

فأشعل تعبيره عن ابتئاسه في العيد، بمُناصاة قول سيدنا أبي الطيب المتنبّي:

«عيدٌ بأيّة حالٍ عُدْتَ ياعيدُ بما مَضى أمْ لأمرٍ فيكَ تجديدُ

أمّا الأَحِبَّةُ فالبَيْداءُ دونهمُ فَلَيْتَ دونكَ بيدًا دونها بيدُ».

وأما الساعدية فقد قالت:

«والسُّؤالاتُ عَتَتْ عن أمرِ رَبي».

فأشعلت تعبيرها عن حُرمة الأسئلة في غَمْرة هَوان صاحبتها، بمُناصاة قول الحق – سبحانه، وتعالى! – في الآية (٨) من سورة الطلاق: {كَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ} (كثيرٌ منها) {عَتَتْ} (تجبرت وتكبرت وأعرضتْ) {عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا} ورُسُلِهِ {فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا}.

وأما الكعبيُّ فقد سمّى قصيدته «إذا مَسَّهُ الحبُّ»، فأشعل تعبيره عن أثر الحب الهائل فيه، بمُناصاة قول الحقّ – سبحانه، وتعالى! – {إِذَا مَسَّهُ}، الوارد خمسَ مراتٍ في الآيات (٨٣) من سورة الإسراء، و(٤٩، ٥١) من سورة فُصِّلَتْ، و (٢٠، ٢١) من سورة المَعارج،وضميرُ الغائبِ فيها كُلِّها للإنسان، والمَسُّ في أربعٍ منها للشرّ، وفي واحدةٍ للخير المانعِ منه صاحبُه غيرَه!

وأما الخروصيُّ فقد قال:

«وكم تساءل دَيْجورُ تأمَّلَ في قلبي الذي لم تُضَعْضِعْ صَخْرَةُ العِلَلُ:

سُبْحانَه كيف يُرْعي القَلْبَ في سَعَةِ عِشْقًا أبى البَحْرُ أنْ يَرْعاهُ و الجَبَلُ».

فأشعل تعبيره عن ثقل أمانة العشق التي تحملها قلبه، بمُناصاة قول الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ في الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ} (التَّكاليفَ مِنْ أوامرَ ونَواهٍ) {عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ}.

- تأمل حَياةَ «ثَقافةِ الخُلود العربيّ» بين أيدي أولئك الشباب، كيف رَعَوْها وراعَوْها غيرَ عابثين بدَعاوى اطِّراحِها كما يُطَرِّحُ الداءُ الدَّوِيُّ، على حينَ يُعَوِّذُ الشيوخُ أنفُسَهم منها مُسَبِّحينَ بأسماءِ غَيْرِها!

- ثم تأمَّلِ «التَّصْويرَ» بين أيديهم جميعًا:

أما الهنائيُّ فقد قال:

«إذا انْتسبَ الدمعُ للبحرِ وَحدي معَ الرّيح أَجْمَعُ أَصْدافَهُ الهارِبه».

فأرانا دموعه على صاحبه الغائب، بحرًا يقف وحيدًا على شاطئه تَتَقاذَفُهُ الريحُ، يجمعُ أَصْدافَه التي تفرُّ منه ثم تفر إليه.

ثم قال:

«لم يُجْفِلِ الموتُ حينَ رَكِبْتَ عليه وَطِرْتَ».

فأرانا صاحبَه قد عَرَجَ ببراق الموت، إلى السماء، وكأنما يطمئن نفسه عليه ويردُّ شماتة الخصوم.

وأما الغافريُّ فقد قال:

«كان وجهُ الدَّرْب يشربُ من خُطاكَ الشمس

وفي خُصُلاتك السوداءِ تَنْتَحِرُ الليالي والخرافاتُ الحزينه».

فأرانا كيف سامى الدربُ الشمسَ بخَطْوِ الفارس المُلْهَمِ الغائب، وكيف انْبَهَرَتِ الليالي وتَهاويلُها بما انْعَقَدَ في خُصُلاتِه الساحرة من أَبَدِ الآمالِ الجليلة.

وأما اللويهي فقد قال:

«الظِّلالُ مَشيئةُ الباكينَ

في صَحْراءِ أيّامي

والسَّرابُ المُخْمَليُّ

بَصيرَتي في الليل».

فأرانا كيف يؤثر الهيّابون ما في ظلال الطريق من سلامةٍ لا جَدْوى منها، على حينَ يخوضُ هو يَمَّ الطريق الخفيِّ المُخيفَ، حَدْسًا بمَواطنِ السلامة وتَنَسُّمًا لجَدْواها.

وأما الرواحيُّ فقد قال:

«كَما يَتَسلَّلُ

هذا النبيُّ الصغيرُ

إلى قلبِ سَيِّدةِ الضَّوْءِ

تَخْتَرِقينَ غَمامةَ صورَتِها

في الفُؤادْ

وكانتْ بِلادْ».

فأرانا كيف أوى الصاحبان إلى كهف الحبِّ نفسه، وشَرِبا عَصيرَه حتى ضاقَ عنهما الكهفُ، فَغَدَوا في مَسالك الأرض، عسى أنْ تُشاركهما فيما يَحْمِلان.

وأما الزدجاليُّ فقد قال:

«أُحِبُّكِ جدًّا بخَيْطٍ يعَلِّقُني تحتَ آخِرِ خَيْطٍ

يُشَكِّلُ شَعْرَكِ بالحُب».

فأرانا كيف يتعلق بصاحبته العاشقون، وكيف يضيف إليهم نفسه راضيًا، وإنما تأذّى من قبلُ بِسِوى عاشقيها منْ سائرِ الكائنات.

وأما الظفريُّ فقد قال:

«وتَعْبَثُ بي صَلواتُ الرُّجوعِ

وجُنَّ جُنونُ المُنى القاتمة».

فأرانا كيف تُراوِدُهُ دواعي الأملِ المستحيل، التي ليس في طاعتها إلا النَّدَم.

وأما الساعدية فقد قالت:

«فاعِلاتُنْ فاعِلاتُنْ لُمِليمني

وهَبيني جَبَروتًا عربيًّا».

فأَرَتْنا كيف تَمثُلُ بين أيدي صاحبتها آثارُ العِزَّةِ والكَرامة الغابرتين، وتَعْمى عنها؛ إذْ «فاعلاتن» التي هي التفعيلةُ التي انبنت بها قصيدتها، مَوجةٌ من بحر حضارتنا العربية الإسلامية

الزّاخرِ المَهجورِ، ثم هي في لغة هذه الحضارة نفسها، صيغةُ اسمِ فاعلٍ تَتَمَنّى الساعديَّةُ أنْ تكونه مرةً أخرى صاحبتُها، بعدَ أنْ صارتِ اسْمَ مَفْعولٍ يَهولُ بلا مَعْنى.

ومثل ذلك التصويرِ في شعرِنا العربيِّ، قديمٌ قَدامةَ قولِ سيِّدنا ابنِ الروميِّ في مَهْجُوِّهِ المُخَلَّدِ عَمْرٍو:

«مُسْتَفعلُنْ فاعلُنْ فَعولُنْ مُسْتَفعلُنْ فاعلُنْ فَعولُنْ

بَيتٌ كمعناكَ ليسَ فيهِ معنًى سِوى أنّهُ فُضولُ».

- حَديثٌ حداثةَ قولِ أحمد عبد المعطي حجازي، في قصيدته «إلى الأستاذ العقاد»:

«مَنْ أيِّ بَحْرٍ عَصِيِّ الرّيح تَطْلُبُه إنْ كُنْتَ تَبْكي عليه نَحْنُ نَكْتُبُهُ

مُسْتَفعِلُنْ فاعِلُنْ مُسْتَفعِلُنْ فَعِلُنْ مُسْتَفعِلُنْ فاعِلُنْ مُستفعِلُنْ فَعِلُنْ».

- وقولِ الحسّانيِّ حسن عبد الله، في قصيدته «منْ وَحْيِ الوافِرِ»:

«إليَّ إليَّ فاعِلَتنْ فَعولُ تَغَلْغَلَ في الحَشا الداءُ الدَّخيلُ...

إذا قالوا: جِبالٌ جَمْعُ حَبْلٍ، أقولُ ولا أُباليهِمْ: حُبولُ!».

وهو يستوحي هنا البحرَ نفسَه، وإنْ لم يكنْ بينه وبين تفعيلته غير عَمَل المَجاز.

- وقولِ أحمد مطر في لافتته «مَقْتَل شاعرين»:

«في أوَّلِ اللَّيْلِ

رَأَيْتُ شاعرًا يُناضِلْ

يَرْقَعُ بالعَروضِ نَعْلَ الوالي

رَأَيْتُهُ مُخْتَنِقًا

في عَرَقِ النِّضالِ

مُسْتَفْعِلنْ مُسْتَفْعِلنْ مَفاعِلْ!».

- وقول أستاذنا أبي همّامٍ عبد اللطيف عبد الحليم، في قصيدته «صورة مِصْريَّة مِنْ زَمنِ المَماليك»:

«فَلْتَغْضَبي مَفْعولاتُ وارْتَقِبي غَضْبةً وإذِ تَرُدُّ ما غَصَبوا

ولْتَجْرُفي في الوُلاة قَزْمتها لا تَتَساوى الرُّؤوسُ والذَّنَبُ».

وهو قد استوحى البحر نفسه (المنسرح)، في مجموعة كاملة تقريبًا سماها لـه **أحمد عبد المعطي حجازي** «من مقام المنسرح»، منها هذه القصيدة.

وما يزال يُلِمُّ بذلك النَّمَطِ منَ التصوير، مثلَما فعل في «**الطائيّة الكُبرى**» التي اجتمع على نظمها، بالكويت، في العاشر من ينايرَ من هذه السنة (٢٠٠٢ م)، هو والدكتور **أحمد درويش** – وهو المتَفَضِّلُ بإطْلاعي عليها ـ والأستاذ فاروق شوشه، والدكتور محمود مكي، والأستاذ سعيد الصقلاوي، والأستاذ عبد الرحمن رفيع ـ في هجاء أَحَدِ أَدْعِياءِ النَّقْدِ؛ فقال:

«ساكتٌ دَهْرًا، وإنْ يَنْطِقْ فهَذْرٌ ولَغَطْ.

بَلِّغوا (عِلّانَ) عَنّي: هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطْ

لابسًا بُرْدَةَ لَيْثٍ وَهْوَ كالأَرْنَبِ نَطْ!...

قَدْ هَجَوْنا الشِّعْرَ يا (عِلّانُ) في هذا العَبَطْ

فاعِلاتُنْ فاعِلاتُنْ فاعِلاتُنْ فاعِلَطْ!»!

وأما الكعبيُّ فقد قال:

«نعم كنتِ عالقةً في جُذوعِ اللُّبانِ

بَخورًا ومِلحا

وفي وَرَقِ السِّندِيانِ

نقوشًا وصَمْتا».

فأرانا صاحبتَه جَمالَ كلِّ جَميلٍ، وأَصالةَ كلِّ أَصيل.

وأما الخروصيُّ فقد قال:

«أجلْ هوَ العشق يا بدري إذا ابتُلِيَتْ به النُّفوسُ تَهادى نَجمُها الثَّمِلُ

حتى إذاما اسْتوى في الأُفُقِ أَسْكَرَها وباتَ يَسْري بِها والأُفْقُ مُكْتَحِلُ

نَجمٌ يُنيرُ فَضاءً ليس يَعرفُهُ إلا مُحِبٌّ بجَوفِ الليل يَبتَهِلُ».

فأرانا العشق نجمًا كانِسًا يُضِلُّ العشاق الكاذبين، ويهدي العشاق الصادقين في ليل الهَجر إلى فَجر الحبيب.

- تأمّلْ شُموسَ «التّصْوير» بين أيدي أولئك الشباب، كيف انْصَهَروا في طلبها غيرَ عابئين ببُعدِ مَنازِلها، على حين يَكْسِفُها الشُّيوخُ مُبْتَهِجينَ بعَمى الأرْض!
- إنهم تسعةُ فتية عمانيّون في العشرين بمُخْتَتَم سِني جامعة السلطان قابوس، أو في أول العشرينيّات بمُبْتَدَأ سِني العمل المُجْتَمَعيّ، تخَرَّجوا بنا في أثْناء عملنا هنا. وإنها تِسْعُ قصائدَ أخواتُ عام (٢٠٠١ م):

خميس الهنائيّ بقصيدته «خُيوطٌ لِـدَوائرَ وَهميَّة»، وعبد الله الغافريّ بقصيدته «اخْرُجْ وَحيدًا» ـ وهوَ مَطْلَعُها؛ فلا عُنْوانَ لها ـ وعوض اللويهيّ بقصيدته «ولولا ثَلاثٌ»، وعلي الرواحيّ بقصيدته «بُكاءُ بَنَفْسَجَةٍ حَوْلَ قَلْبي»، ويوسف الزدجاليّ بقصيدته «جُنونُك صَمْتٌ وصَمْتُكِ أزْرَقُ»، وسعود الظُّفريّ بقصيدته «عيد»، ومريم الساعديَّة بقصيدتها «تَسْليةٌ في وَضَحِ القِمَّة»، وعبد الله الكعبيّ بقصيدته «إذا مَسَّهُ الحُبُّ»، وهشام الخروصيّ بقصيدته «بَذْرُ والعاشِقُ القَديمُ».

- تأملِ الشعرَ بين أيديهم ثم تأمله ثم تأمله...
- ثم قلْ:

«ماذا جَنَيْتُ مِنَ المُستَشْيِخينَ ومِنْ ضَلالِ حِلْمَتِهِمْ هذي الّتي اتّبَعوا
إنْ قُلْتُ قافيةً بِكْرًا يَكونُ بها شَيءٌ على غَيرِ ما جازوهُ أو شَرَعوا
قالوا جُنِنْتَ فهذا الوَصْفُ شَطٌّ وهذا اللّفْظُ نَطٌّ وهذا الفَهْمُ مُمْتَنِعُ
وَيلي عَلَيْكُم كَانَ الشّعْرَ شَيَّخَكُمْ عَلَيْهِ وَحْيًا أتاكُمْ والوَرى تَبَعُ
ما كانَ شِعْرِيَ مَبْذولًا لَكُمْ فَخُذوا ما تَعْرفون وما لَمْ تَعْرِفوا فَدَعوا».

- ولا عليكَ منْ أنْ يَغضَبَ عَمّارٌ الكَلْبيّ!

## المَقامَةُ البَسْبوسيَّةُ

يظلمني البشر وينصفني القدر. ما أسعدني هذا المساء!

أرى أن أبسط لنفسي وإلا قعدت بي.

هو «مركز سلطان» بالقرم، سوق البضائع معرض الحوائج.

قف يا شيخ!

سبحان الذي جعل الدنيا في أيدينا ولم يجعلها في قلوبنا!

ولكن هذه «البسبوسة» موعدتي القديمة للدكتور خليل الشيخ، التي لم أوفها بعد، ونحن على المفترق، ثم إن أمسيتنا بمجلس الدكتور أحمد درويش لم تتم.

لا ضير، أصل — إن شاء الله — قبيل التاسعة، فأدركها.

موضوعه مشغول ومحموله متروك، يا دكتور خليل؛ فلتحضر أنت، وسأعيد مهاتفته.

البسبوسة غايتنا — يادكتور أحمد — والريف موعدنا في التاسعة والنصف.

أَصُفُّ هنا — قالها شامية الدكتور خليل — لنراقبه.

هو ذا.

ثم تبعنا في خبايا الخوض حتى منزلي.

يا بهجتي! في مجلسي عِفْريتان نِفْريتان لا يُمَلان علما وفنا ولا يُدْركان!

آه! بأية أنفاق مدلهمة مررتما بي! لقد عجزت عن أن أرى مواطئ سيارتي وقلمي وراءكما! لا أدري كيف ستبدو الأبيات، ولكن اسمعا — قال الدكتور أحمد —:

طَغَتْ في دَلِّها دوسَهْ وَقالَتْ رُمْتُ بَسْبوسَهْ
يُجاءُ بِها مِنَ «السُّلْطانِ» في السُّكَّرِ مَغْموسَهْ
وَيَبْدو اللَّوْزُ في الأَرْجاءِ يُغْري الثَّغْرَ بِالْبوسَهْ
تُصانُ عَنِ الْعُيونِ الْجائِعاتِ تَجيءُ مَحْروسَهْ

فَقُلْنا كَيْــفَ وَالْحُرّاسُ لِلسُّــلْطانِ كَالسّــوسَــةْ

يُراعــونَ اقْـتِرابَ النَّمْـلِ مِـنْ ذَرَّةٍ بَسْـبوسَـــةْ!

فَقالَتْ لَيْسَ غَـيْرُ الصَّقْــرِ كُـلُّ خُطـاهُ مَدْروسَـةْ

إذا ما صـاحَ فَوْقَ الْقَصْــرِ وَاسْـتَفْتَحَ بِالْموسَـةْ...

أجز!

قلت:

«أَتـى بِالْخُــلْوَةِ الْحُــرّاسُ وَالْهامــاتُ منكوسه

وَباتَــتْ نَمْــلُ وادي الْقُــزْمِ بِالصَّيْحَـــةِ محسوسه

هَمَمْــنا فَإِذا في وَكْرِهِ الْآمــــالُ مَحْبوسَـــةْ

فَنازَعْنــاهُ شَمْسَــــــا مِــنْ قَـديمِ لِلْــوُدِّ مقبوسه

الله أكبر!

قلوبنا لدوسة مرتع!

وعاشت البسبوسة غاية يسموها أشراف هذا الزمان!

# إذا مَسَّه الحُبُّ حَنَّ

[ قراءةٌ لِمجموعَةِ عَبْدِ اللهِ الْكَعْبِيِّ الشّاعِرِ الْعُمانِيِّ الشّناصيِّ: «إذا مَسّه الحُبُّ»، الْمَنْشورَةِ في ٢٠٠٥م، عَنْ مُؤَسَّسَةِ الإنْتِشارِ الْعَرَبِيِّ بِبَيْروتَ ].

كلما قرأت للكعبي شعرا ذكرت كلمة قالها أحد الشعراء لبعض من جاءه يشكو إليه كذب بعض المغنين عليه - والشعراء والمغنون قبيلة واحدة - قال له: «إنَّ فُلانًا - يعني ذلك المغني - لا يَصْدُقُ إلّا إذا غَنّى»!

وكذلك الكعبي لا يظهرُ حتى يقول شعره، ولا تعرفُه حتى تقرأه!

إن الكعبي «إذا خَبَرَ ادَّخَرَ». حكمة عربية أندلسية قديمة بالغة، عمل بها؛ فصعدت به إلى هذا المقام الذي ترونه فيه الآن. لا تسمعونه يتفنن في مَنْطِقٍ ولا في مَظْهَرٍ ولا في مَسْلَكٍ، فإن سمع مَنْطِقًا أو رأى مَظْهَرًا أو أدرك مَسْلكًا، فوجد في أيٍّ منها أَثارَةً فَنِّيَّةً، ادَّخَرَها، حتى إذا ما مَسَّه الحُبُّ حَنَّ، فأقبل يُفَجِّرُ كُنوزَه تفجيرا.

إن الكعبي إذا مَسّه الحُبُّ حَنَّ:

- حَنَّ يَحِنُّ حَنينًا، أي اشتاقَ وطَرِبَ.
- حَنَّ يَحِنُّ حَنانًا، أي عَطَفَ ورَحِمَ.

ولن يَفْتَقِدَ مُتَأَمِّلُ مجموعته هذه، مَوادَّ الحَنينِ والحَنانِ في أَيَّةِ قصيدة من قصائدها.

ولكن كيف يجتمع الاشْتياقُ والطَّرَبُ والعَطْفُ والرَّحْمَةُ، مَعًا؟

إن الاشتياق والطرب كليهما معا، هما سبيلا الأنفس السوية إلى العطف والرحمة كليهما معا، أي لَوْلا حَنينُ الْأَنْفُسِ السَّوِيَّةِ ما كانَ حَنانُها؛ ومن ثم نحتاج دائما أن نُعَلِّمَ أولادنا - ونُذَكِّرَ أنفسنا - الاشتياقَ والطربَ، لا كما قال السّوريُّ وغَنّى المِصْريُّ:

«اشْتَقْتُ إِلَيْكَ؛ فَعَلِّمْني أَلّا أَشْتاقَ»،

وإن جاز ذلك من باب السياسة الغزلية!

فكيف إذن حَنَّ الكعبي؟

إنه إذا مسه الحب، رَقَّتْ نَفْسُه، ثم رَقَّتْ، ثم رَقَّتْ، حتى صارت مثل الماء؛ فنفذ منها الكون كله: مَنْ فيه وما فيه، ومَنْ كان فيه وما كان فيه، حتى إن نفسه الماضية لَتَنْفُذُ من نفسه الحاضرة، فيما ينفذ!

ينفذ من خلال مائيَّة نَفْسِه الحاضرة، ذلك كلُّه مُكَبَّرًا؛ فَيَنْدَهِشُ مِنْهُ، وَيَبْتَهِجُ بِه، وَيَخِفُّ لَه، وَيَمُدُّ يَدَه يُصافِحُه، حتى إذا ما وَجَدَ سَرابَه، رَجَّعَ في إِثْرِه تَرْجيعًا يَظُنُّ أَنَّه يَرْجِعُه بِه:

«كَمْ نَرْتَمي في حِضْنِ أُمِّكَ

أَنتَ يا وَجْهي الَّذي لَمْ يَخْتَمِرْ

وَلَدي

أَبي

وَلَدي

أَبي

وَلَدي طَرِيٌّ في الْقُلوبِ

مِساحَةٌ لِلدَّمْعِ

وَجْهُكَ أَوَّلُ المُتَجَنِّبينَ لِقُبْلَتي

كَالْعُشْبِ رِمْشُ الأَرْضِ يا وَلَدي

وَرِمْشُكَ كُحْلُها

ما بالُ أَسْئِلَتي مُحَيِّرَةً

سُؤالي وَرْدَةٌ حَمْراءُ

هَلْ لِلْبَحْرِ أَجْنِحَةٌ

لَكَمْ تَتَحَطَّمُ الأَمْواجُ ناحِيَتي

أُراقِبُ صورَةً أولى

أَحَقًّا بَسْمَةُ الأَطْفالِ جافِلَةٌ
كَأَنَّ وراءَها مَلِكًا سَيَسْلُبُ صَمْتَها
لا صَوْتَ يَتْبَعُني كَصَوْتِكَ
أَضْبِطُ المِذْياعَ
أَسْمَعُه
خِلالَ مُغامَراتِ الْعاشِقينَ
قَناةِ قُرْآنٍ
دُعاءِ مُراهِقٍ يَبْكي عَشِقْتُ فَتُبْتُ
أُمُّكَ تَسْأَلُ الْوُعّاظَ
هَلْ لِحَليبِها يَوْمَ الْقِيامَةِ راضِعٌ غَيْرُ ابْنِها
أَمْ إِنَّ ما يَبْقى سَيَرْضَعُه النَّحيبُ
كَما النَّخيلِ أُبوَّتي مَوْلودَةٌ
كَفٌّ تُصافِحُ مِعْصَمًا
لِلْبَحْرِ ذاكِرَةٌ يُعانِقُها سُقوطُ الرَّمْلِ مِنْ قَدَمي
مَعًا تَتَهَرَّبُ الأَنْظارُ مِنّا
ثِقْ بِأَنَّ أَباكَ يَعْشَقُ أُمَّكَ الثَّكْلى
وَأَنَّ رُجولَتي تَرِثُ الحَليبَ
الصَّيْفُ يولَدُ في الرَّبيعِ
هَزيمَةٌ وَضْعُ التُّرابِ عَلى التُّرابِ
أَكُلَّما أَضَعُ النِّقاطَ عَلى الحُروفِ
أَراكَ
لا تَحْزَنْ فَحَبّاتُ الذُّرى أَحْلى مَتى تَتَعَرّى

لي طَلَبٌ أخيرٌ

ضُمَّني».

هذه قصيدته «لُقيا»، ذات الاسم المفتقد في متون المعاجم الكبيرة، مثلَ افتقاده في متن هذه الدنيا الفانية، فيما أشْعَرَنا الكعبي!

في هذه القصيدة المشتعلة، أشِعَّةٌ تَصويريَّةٌ ثائرةٌ شارِدَةٌ، تَضْطَرِبُ أمامًا وَوَراءً، وَيَمينًا وَشِمالًا، أشْتاتًا أشْتاتًا، إذا أنْفَذْناها من جهاز التَّأمُّلِ، تجَمَّعَتْ، وتَكَثَّفَتْ، وتَرَكَّزَتْ؛ فَاشْتَعَلَتْ بها أربعُ شُعَلٍ:

- شُعْلَةُ الأَبِ: تشعلها «هَزيمَتُه»، و«أُبوَّتُه»، و«أَسْئلتُه»، و«رُجولَتُه»، و«عِشْقُه»، و«وَجْهُه»، و«قُبْلته»، و«دَمْعُه»، و«كَفُّه»، و«قَدَمُه»، و«سَمْعُه»، و«نَظَرُه».
- شُعْلَةُ الإبْنِ: يشعلها «تُرابُه»، و«دَفْنُه»، و«بُنوَّتُه»، و«ضَمُّه»، و«مِعْصَمُه»، و«وَجْهُه»، و«رِمْشُه»، و«صَوْتُه»، و«بَسْمَتُه».
- شُعْلَةُ الأُمِّ: يشعلها «ثُكْلُها»، و«نَحيبُها»، و«حِضْنُها»، و«حَليبُها»، و«سُؤالُها».
- شُعْلَةُ الْبَحْرِ: يشعلها «مَلِكُه»، و«ذاكِرَتُه»، و«أَجْنِحَتُه»، و«أَمْواجُه».

أشعة شعل الأب والابن والبحر كلها مختلفة فيما بينها، متعاكسة الضوء والحرارة أحيانا: أما أشعة شعلة الأب ففي حيرة بين الهزيمة والعزيمة، وأما أشعة شعلة الابن ففي حيرة بين العدم والوجود، وأما أشعة شعلة البحر ففي حيرة بين المَضَرَّة والمَنْفَعة.

وأشعة شعلة الأم مؤتلفة كلها فيما بينها، متوازية الحرارة في مقام الهزيمة وحده!

ذاك الذي جَمَّعَ أشعة القصيدة التصويرية فيما سبق - وكذلك يفعل بقصائد المجموعة كلها - وكَثَّفَها، ورَكَّزَها، حتى اشْتَعَلَتْ بها الشُّعَلُ الأربع، هو «جِهازُ التَّأمُّلِ» جِهازُ اسْتِقْبالِ المُتَلَقّي. ولكن لو لم يكن «جِهازُ الحَنينِ» جِهازُ إرْسالِ الْكَعْبيِّ، قد جَمَّعَ تلك الأشعة أنْفُسَها مِنْ قَبْلُ - وكذلك فعل بقصائد المجموعة كلها - وكَثَّفَها، ورَكَّزَها، حتى اشْتَعَلَتْ بها الشُّعَلُ الأربع أنْفُسُها، ما استقبلها المتلقي.

لقد أراد الكعبي في مجموعته هذه الشعرية ذات الأَرْبَعَ عَشْرَةَ قصيدة، أن تكون كلُّ قصيدة منها في نفسها، بيتًا واحدًا، خَصيبَ الأنغام، عميقَ اللحن، مُتَداخِلًا، مُتآخِذًا، مُتاحًا من داخلٍ لساكنيه أن يثوروا ويهدؤوا وأن يهزلوا ويجدوا، مُغْلَقًا من خارجٍ عليهم أن يخرجوا وعلى غيرهم أن يدخلوا!

ولا سبيل إلى ذلك إلا بالشعر الحر، بل ذلك نفسه هو أصل فلسفة نشأة الشعر العربي الحر في خَمْسينيّات القرن الميلادي العشرين، التي كانت على أثر تطور الحركة الإيقاعية العامة، ولا سيما الموسيقيَّةُ التي أنشأت السينفونيةَ والكونشيرتو وغيرَهما، واللُّغَويَّةُ التي أنشأت القصةَ والروايةَ وغيرَهما.

انجذب الكعبي للشعر الحر، على رغم تصديره مجموعته بثلاثة أبيات عمودية من أول فائيَّة عمرَ بن الفارض مولانا سلطان العاشقين، تأملناها معا قديما، وأحببناها معا:

قَلْبي يُحَدِّثُني بِأَنَّكَ مُتْلِفي ... روحي فِداكَ عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَعْرِفِ

لَمْ أَقْضِ حَقَّ هَواكَ إِنْ كُنْتُ الَّذي ... لَمْ أَقْضِ فيهِ أَسًى وَمِثْلِيَ مَنْ يَفي

ما لي سِوى روحي وَباذِلُ روحِهِ ... في حُبِّ مَنْ يَهْواهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ

على مذهبه في الحنين نفسه!

ربما أراد الكعبي أن ينبهنا على أن ما سلكه في مجموعته، لا يمنع غيره أن يسلك غير مسلكه، أو لا يمنعه هو نفسَه أن يُغَيِّرَ مَسْلكه. وربما أَيَّدَ هذا التأويل الأخير، أن الكعبيَّ أَرْسَلَ إليَّ هذه الأيام بعد صدور مجموعته هذه، قصيدةً عَموديَّةً، مُنْسَرِحيَّةً، طَويلَةً، مُحْكَمَةً على نَمَطٍ من أعصى الشعر العربي القديم، سَمّاها «كَعُرْسِ الرِّمالِ تَمَلَّكَتي»، وقال في مطلعها:

«حُجَّ إِلى مَفْعولاتُ يا زَمَني ... إِذْ لَيْسَ ذَنْبًا مَحَبَّةُ الْوَطَنِ»،

جاعلا الماضي وطن الحاضر، على مذهبه نفسه في الحنين!

انجذب الكعبي إذن في مجموعته هذه الأولى، للشعر الحر في صورته الفلسفية الحقيقية، ولم يستعمل من أبحر الشعر العربي الستة عشر، غير أربعة:

- المتقاربُ الذي نَهَلَ منه سبع قصائد (٢، ٣، ٤، ٧، ٩، ١٢، ١٤).
- الكاملُ الذي نَهَلَ منه خمس قصائد (١، ٨، ١٠، ١١ ـ وهي قصيدته «لُقْيا» الآنفة ـ ١٣).
- الوافرُ الذي نَهَلَ منه قصيدة واحدة (٥).
- الرملُ الذي نَهَلَ منه قصيدة واحدة كذلك (٦).

فانحصر فيما انحصر فيه سلفه من شعراء الحر، من الأبحر المفردة التفاعيل؛ فتقاليد الفنون خالدةٌ خلودَ حَنينِ الإنسان، ينبغي ألا تقاس إلى تقاليد العلوم المتغيرةِ تَغَيُّرَ آلاتِها.

وإذا كان الوافر أخا الكامل (عِلَتُنْ مُفا = مُتَفاعِلُنْ = دددن ددن)، وكان الرمل أخا الهزج (عِلاتُنْ فا = مَفاعيلُنْ = ددن دن دن)، الذي يَلْتَبِسُ بالوافر المَعْصوب كثيرا جِدًّا (مَفاعيلُنْ = مُفاعَلْتُنْ = ددن دن دن) ـ كانت قصائد المجموعة على حَرَكَتَيْنِ:

- بَطيئةٌ حَزينةٌ، في قصائد المتقارب (ددن دن)، تقل فيها المقاطع القصيرة.
- سَريعةٌ فَرِحةٌ، في قصائد الكامل (دددن ددن) تكثر فيها المقاطع القصيرة.

وهل الحَزَنُ والفَرَحُ إلا شَطْرا الحَنينِ!

ثم ألغى الكعبي قوافي القصيدة، وأطلق عن تفاعيل البحر، ودَفَّقَها، ووَزَّعَ كتابتها على أسطر صفحتها، حتى ينسلك المتلقي في دُوّامتها؛ فيظل يدور يدور يدور حتى يَتَمَغْنَطَ بشِحْنَةِ الحنين التي فيها!

ولكن ربما عَلِقَ الكعبي نَفْسُه أحيانا من قِبَلِ المتلقي، بمِغْناطيس الحنين؛ فعجز عن كَبْحِ جِماحِ قصيدته!

لقد كنتُ أجد القصيدة تنتهي فَجْأَةً؛ فَأَتَخَيَّلُ الكعبيَّ بعد ما يَبْذُلُ فيها نَفْسَه حتى يَسْتَغْرِقَ وُسْعَه، يَتْرُكُها مُقْسِمًا أَنْ لَنْ يَنْظُرَ فيها مَرَّةً أُخرى!

إنه إذا كان قد وُفِّقَ بِقَوْله في آخر قَصيدته «لُقْيا» الآنفة:

«لي طَلَبٌ أخيرٌ

ضُمَّني»،

إلى أن ينبه المتلقي بكلمة «أخيرٌ» في نعت كلمة «طَلَبٌ»، على نهاية القصيدة ـ فقد عجز عن ذلك في أكثر قصائد المجموعة، ولا سيما في قصيدته الوافِريَّة «كذا أبْدو»، التي قال في آخرها:

«نَسيتُ بِأنَّني عَبَثًا أُسابِقُ نَخْلَةَ»،

| نَسيتُ بِأنْـ | نَني عَبَثًا | أُسابِقُ نَخْـ | لَةً / ـهْ |
|---|---|---|---|
| ددن دددن | ددن دددن | ددن دددن | ددن / دن |
| مفاعلتن | مفاعلتن | مفاعلتن | مفا / × |
| سالمة | سالمة | سالمة | × / × |

الذي إذا أعْطَيْنا كل تفعيلة منه حقها، تمَّتْ له ثلاثُ تفاعيل، ثم بَقِيَ ذَيْلٌ، إذا عاملناه على رَسْمِ الكعبي له بالتاء المربوطة المنقوطة، كان جُزْءًا من أول تفعيلة جديدة مظلومة، وَتِدًا مَجْموعًا (ددن = مفا)، وإذا عاملناه على ما ينبغي لوقف النهاية، كان جُزْءًا غَريبًا تائهًا، سَبَبًا خَفيفًا (دن = ×).

وعلى عكس ذلك شَذَّتْ في قصيدتيه: السادسة الرَّمَليَّة «في صحراء كلا»، والثالثة عشرة الكامِليَّة «حصاد» ـ وَقْفَتانِ غَريبَتانِ، مَنَعَتا من الكعبي تَدْفيقَها الذي حَرَصَ عليه:

- أما الوقفة الأولى فكانت بأول قصيدتها:

«اقْرَئيني

وَإذا الحُبُّ أتى

سَأُلاقيهِ عَلى الرَّبْوَةِ قَبْلا»،

فلا بد من وقفة واضحة، على «ـبُ أتى = دددن = فَعِلا = المخبونة المحذوفة»، من قبل الانتقال إلى «سَأُلاقيـ = دددن دن = فَعِلاتن = المخبونة»، وإلا انكسر الوزن!

- وأما الوقفة الأخرى فكانت بآخر قصيدتها:

«بعْ ما تبَقّى لا تَذْرها كَالمُعَلَّقَةِ انْتِظارَ خُطاكَ

قَفزَة

مَوْجٌ يُحطِّمُ كُلَّ أَوْرِدَتي

أُريدُكِ قُرْبي».

فلا بد من وقفة واضحة، على «رَ خُطاكَ قَفْزَهْ = دددن ددن دن = مُتَفاعِلاتُنْ = المُرَفَّلة» - وإن رَسَمَ الكعبيُّ تاءَ «قَفْزَة» مَنْقوطَةً - من قبل الانتقال إلى «مَوْجٌ يُحطْـ = دن دن ددن = مُتْفاعِلُنْ = المضمرة»، وإلا انكسر الوزن!

ولقد كان الكعبيُّ في الوقفتين مُكْرَهًا لا بَطَلًا؛ فأما الوقفة الأولى فقد اضْطُرَّ إليها لما ذَيَّلَ قصيدته فَجْأَةً بالجزء الأخير، تَعْبيرًا عن رفض حَصادِ الهَشيم الذي تَذَرّى فيها على رَغْمِه، وأما الوقفة الآخرة فقد اضْطُرَّ إليها لما تَوَّجَ قصيدته فجأة كذلك بالجزء الأول، تَعْبيرًا عن فَراغِ صَبْرِه الذي تَمَرَّرَ فيها على رَغْمِه كذلك؛ فمن ثَمَّ كانت الوَقْفَتان مِنْ آثارِ لَحَظاتٍ غَلَبَتْ فيها على فَنِّيَّةِ الْكَعْبي عِلْمِيَّتُه!

وفي غَمْرَةِ الحنين نَدَّتْ من الكعبي عَثَرات لُغَوِيَّةٌ كَثيرةٌ وعَروضيَّةٌ قَليلَةٌ، كَفيلَةٌ بأن تَلْفِظَ المتلقي البَصيرَ من دُوّامات قصائدها، من قبل أن يَتَمَغْنَطَ بشِحَنِ الحنين التي فيها!

فمن عثراته اللغوية التي صَحَّحْتُها له في قصيدته «لُقْيا» الآنفة:

- رفعُ «مُحَيَّرَةٌ، ومَلِكٌ» في قوله:

«ما بالُ أَسْئِلَتي مُحَيَّرَةٌ (...)

كَأَنَّ وراءَها مَلِكًا»،

والصواب نصبهما، لأن الاسم الأول حال، والآخر اسم «كأنّ».

- فتحُ همزة «أنَّ» في قوله:

«هَلْ لِحَليبِها يَوْمَ الْقِيامَةِ راضِعٌ غَيْرُ ابْنِها

أَمْ إِنَّ ما يَبْقى سَيَرْضَعُه النَّحيبُ»،

والصواب كسرها، لصدارتها الجملة المستأنفة بـ«أم» المنقطعة.

- استعمالُ «سَويًّا» بمعنى «مَعًا»، في قوله:

«مَعًا تَتَهْربُ الْأَنْظارُ مِنّا»،

والصواب «معا»، لأن السوي المستوي.

- حذفُ ألف «تتعرى»، ظنا أنه مجزوم بـ«متى»، في قوله:

«لا تَحْزَنْ فَحَبّاتُ الذُّرى أَحْلى مَتى تَتَعَرّى»،

والصواب ألّا جَزْمَ بـ«متى» التي لم تترتب هي وما بعدها ترتب الشرط، ولكن لا حيلة في حَذْفِ الألف نُطْقًا المكتوبة عُرْفًا، وإلا انكسر الوزن.

ومن عثراته العروضية القليلة في قصيدته الرابعة عشرة «خيال»:

- طَمْسُ تفعيلتين من المتقارب (فعولن فعولن)، بما يؤدي إلى تفعيلة من الرمل (فعلاتن)، في قوله:

«عَصا الشَّيْخِ عَطَّلَتِ الْمَشْهَدَ الْكُلُّ مَضى
يَسْتَعِدُّ»،

فـ«ـلُ مَضى يَسْـ = دددن دن = فعلاتن»، لا مكان لها هنا، ولوكان مثلا: «ـلُ يَمْضي يُعِدُّ = ددن دن ددن د = فعولن فعولُ»، لاستقامت التفعيلتان.

- زيادة مقطع قصير (سح) في وسط وتد (فعولن)، بما يؤدي إلى مثل تفعيلة الرمل السابقة نفسها، في:

«لِأَنَّ الرِّجالَ يَعودونَ مِنَ الْحَرْبِ جَرْحى»،

فـ«نَ مِنَ الْحَرْ = دددن دن = فعلاتن»، لا مكان لها هنا، ولو كان مثلا: «نَ مِ الْحَرْ = ددن دن = فعولن»، لاستقامت التفعيلة.

إنه إذا جاز من الشعراء جميعا أن يَعْثُروا هذه العَثَراتِ، لم يجز من ابني أنا عبد الله الكعبي، الذي عَرَفَ معي أن الشاعر العربي إمام عَروضي أكبر من العَروضيين جميعا، وإمام

لُغوي أكبر من اللُّغويين جميعا، وحَفِظَ معي كلمة البحتري في تفضيل أَبي نُواسٍ الْحَسَنِ بْنِ هـانِئٍ الْحَكَميِّ، على مُسْلِمِ بْنِ الْوَليدِ صَريعِ الْغَواني، بعد ما قيل له: «إِنَّ أَبا الْعَبّاسِ ثَعْلَبًا لا يُوافِقُكَ عَلى هذا. فَقالَ: لَيْسَ هذا مِنْ شَأْنِ ثَعْلَبٍ وَذَويه، مِنَ الْمُتَعاطينَ لِعِلْمِ الشِّعْرِ دونَ عَمَلِه، إِنَّما يَعْلَمُ ذلِكَ مَنْ دُفِعَ في مَسْلَكِ طَريقِ الشِّعْرِ إِلى مَضايِقِه، وَانْتَهى إِلى ضَروراتِه»!

وَلكِنْ لا بَأْسَ بِه، كانَ اللهُ جارَه!

# المَقامَةُ البَلْبالِيَّةُ

ضُحى هذا اليوم اجتمع أساتيذ قسمنا بجوار مكتب رئيس القسم، وكنت فيهم.

خضنا في صغائر يُرَقِّقُ بعضُها بعضا، منها مسألة الدَّوام، واحتباس الأستاذ بمكتبه ككرسيه الذي يجلس عليه، من الثامنة صباحا إلى الرابعة مساء، عسى الله أن ينفع به طالبا ضالًّا أو أمْرًا مُلِيًّا من أعباء العمل، ولْتذهبْ أوراد يومه وليلته من كتب علمه وأوراق بحثه، إلى حيث ألقت؛ فأستاذ جاهل جامد لاصِق بالأرض خير من أستاذ عالم طُلَعَةٍ آبِق!

وكان من تُرَّهات مسألة الدوام ضيق الرّاقبين الخافين بالأساتيذ الخادعين الزائغين الذين يتركون مكاتبهم مُفَتَّحَةَ الأبواب مُضَوَّأَةَ المصابيح علامةً على أنهم بمكان قريب، ويفزعون إلى بيتهم، وهو ما زَيَّفَهُ نَفَرٌ من الأساتيذ بأن العلامة أصيلة حقيقية، وأن الأستاذ ربما كان عند زميله يُطارِحُهُ شيئا من أمور العمل، أو في حيثُ يُصَوِّرُ أوراقا، أو في الحمام، أو في غير ذلك؛ فينبغي إحسان الظن به؛ فإنَّ الذَّهاب بسوء الظن إلى هذا المدى يقطع ما بين أطراف العمل فيفسده.

ولقد أعجبني هذا الاستطراد الخبيث؛ فَشَرَدْتُ عن زملائي وأنا بينهم؛ فكتبت أبياتا نَقَّحْتُها بعد ذلك، ثم استأذنتهم؛ فَقَرَأْتُها تَعْليقًا مني على المسألة المنظورة كما يُعَلِّقونَ:

يا زائِري قِفْ قَليلًا قَبْلَ اقْتِراحِ مَلامي

ذَهَبْتُ أَبْذُلُ حَقًّا لِصاحِبِ الحَمّامِ

فَلَوْ بَقيتُ سَعى بي إلى الرَّئيسِ حِمامي

أَوْ مِنْ مُعاناةِ بَيْنِ الحَمّامِ بُلْتُ أَمامي

وَاذْبَحْ شِكايَةَ يَوْمي بِدامِياتِ دَوامي!

فلما فرغْتُ ضحك بعضٌ، وصمت بعض، وسخر بعض بوجوب ضَمِّها إلى محضر اجتماعنا؛ فعلقتها أنا للزُّوّار على لوح مكتبي، ثم خشيت أن ينكروا عليَّ كلمة «بُلْتُ» تلك المثيرة

وكأن لا حقيقة لها؛ فضربت عليها بالخطوط المائلة التي تزيل عني الحرج ولا تمنع القراءة؛
فصمت عنها بعض زواري، وصَوَّرَها بعضٌ، وتَرَنَّمَ لي بها مستحسنا ما شاء منها بعضٌ!

# مِنْ حِواراتِ الْمُجَلّاتِ الْعِلْمِيَّةِ

**رسالة من مجلة العلوم الإنسانية:**

أ ع غ/ ز خ/ ١٦٩٤/ ٠٣

٣ مـــايـــو ٢٠٠٣

**حضرة الدكتور الفاضل محمد جمال صقر المحترم**

جامعة السلطان قابوس

ص. ب. ٤٢ ــ الخوص مسقط ــ سلطنة عمان

تحيـة طيبــة وبعــد،،،

**الموضــوع: إجازة بحث بعد التعديلات**

يسرنا أن نعلمكم بأن بحثكم الموســوم بـ

**المنظومات النحوية العمانية بين المنظومات النحوية العربية تاريخ ونقد**

قد عرض على التحكيم وفق ما تقتضيه قواعد النشر في مجلة العلوم الإنسانية وقد أُجيـز للنشر ولكن بعد النظر في إجراء التعديلات التالية:

١. ضرورة إرفاق ملخصين أحدهما باللغة العربية والآخر بالإنجليزية، مع إعطـاء عنـوان البحث باللغة الإنجليزية تفاديًا لترجمة قد لا ترضاها.
٢. استدراك الأخطاء اللغوية (انظر المرفق).
٣. استدراك الأخطاء الشكلية منها: الخاصة بالحواشي وباخطاء الطبع وكتابة الأبيات.
٤. يرجى مطالعة المرفق ففيه التفصيل.

أرجو التكرم والنظر في الملاحظات المذكورة وموافاتنا برأيكم وتعديلاتكم.

كما يرجى إرسال ديسك كمبيوتر للبحث بعد التعديلات أو إرسال نسخة من البحث على بريد المجلة الإلكتروني المدون أسفل الصفحة تلافيًا لأي أخطاء قد تحدث أثناء إعادة الطباعة.

وتفضلوا بقبول خالص الشكر والتقدير،،،

**أ.د. إبراهيم عبدالله غلوم**

**عميد كلية الآداب**

**ورئيس تحرير مجلة العلوم الإنسانية**

[ يمكنكم مراسلتنا على بريد المجلة الإلكتروني: hssj@admin.uob.bh ].

**رد المحكم على الباحث:**

**وهاكَ تفصيل ذلك:**

**الملاحظات الخاصة بسلامة اللغة**

**أولًا: قلتَ - ص٣ (السطر ٥، ٦ من أسفل) -:**

«... وجانبه الصواب في عدِّ بعض المنظومات، مثل ذكره لمنظومة الحريري... ولمنظومة الشبراوي...»

**الصواب** أن يقال: «... مثل ذكره منظومة الحريري... ومنظومة الشبراوي...» بدون حرف الجر «اللام»؛ لأن كلمة «ذكر» مصدر مضاف إلى فاعله الضمير، و«منظومة الحريري» مفعول المصدر، والمصدر كفعله في التعدي بدون حرف الجر. قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة: من الآية ٢٠٠].

وقد تكرر هذا التجاوز في مواضع أخرى من البحث، بلغت جملتها اثنى عَشَرَ موضعًا، وهي على الترتيب:

١. ص٤ ــ السطر [١١] من أسفل ــ قلتَ: «... ولاريب في حصافة حصره لمادة بحثه...».

٢. ص٨ ــ السطر [١] من أعلى ــ قلتَ: «على رغم تعديد كثيرٍ من الناثرين لمتونهم المنثورة...»

٣. ص٨ ــ السطر [١٦] من أسفل ــ قلتَ: «... ولكن ابن معطٍ ذكر تفسير اختياره للرجز...».

٤. ص٩ ــ السطر [١٧] من أسفل ــ قلتَ: «... انتبه إلى وجودها المنظوميُّ، في خلال استقرائه للمنظومات العربية...».

٥. ص١٣ ــ السطر [٦] من أعلى ــ قلتَ: «... وعلى رغم ما سبق من اتخاذ المنظوميِّ شرح الناظم لمنظومته دليلًا...».

٦. ص١٣ ــ السطر [٧] من أعلى ــ قلتَ: «... انتبه غيره إلى ما في شرح الماتن لمتنه، من دلالةٍ...».

٧. ص٢٠ ــ السطر [٥] من أسفل ــ قلتَ: «... ففي أول البيتين إشارة إلى رعايته للزامليِّ في نظمه».

٨. ص٢٥ ــ السطر [٨] من أعلى ــ قلتَ: «... أمَّا إيثارهم لها على رواية الشاهد...».

٩. ص٢٥ ــ السطر [٩] من أعلى ــ قلتَ: «... صحة القاعدة التي استنبطها النحويون القدماء بعد استقرائهم لكلام العرب...».

١٠. ص٢٥ ــ السطر [٣] من أسفل ــ قلتَ: «... ثم إهماله لنقد مادته،...».

١١. ص٢٥ ــ السطر [١٥] من أسفل ــ قلتَ: «... على رغم اتباعها لابن مالك...».

١٢. ص٢٦ ــ السطر الأخير من أسفل ــ قلتَ: «... عدم انتساخ العمانية بالمالكية على رغم اتِّباعها لها».

ثانيًا: ص٣ ــ السطر [١١، ١٢] من أعلى ــ قلتَ: «... وإنما فاقتها؛ لأنها من بحر واحد، وألفية ابن معطي من بحرين،... ولأنها أكثر أحكامًا من ألفية ابن معطي».

أخي الكريم؛ وثقتَ النص من كتاب: «المنظومات النحوية وشروحها: حلقة من تاريخ النحو» للدكتور/ محمود نجيب ص٢٣.

وهذا كلام العلامة محمد بن على الصبان في حاشيته على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١/ ١٧ — طبعة دار إحياء الكتب العربية — عيسى البابي الحلبي وشركاه.

والذي يهمنا في هذا المقام الملاحظة النحوية، وهي إثبات الياء في (معطي) وكان ينبغي أن تنبه على ذلك في الحاشية، بأنه يجوز الوقف على المنقوص المجرد من (أل) والإضافة برد الياء، كقراءة ابن كثير: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادي}[الرعد: من الآية٧]، {وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالي}[الرعد: من الآية١١]، {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقي}[النحل: من الآية٩٦]. والمختار الوقف عليه بالحذف، وهو مذهب سيبويه والمتأخرين؛ لأن الياء غير ثابتة وصلًا، فلما قصد الوقف عليه حذفت حركته وتنوينه، قياسًا على الصحيح، ولأن الوقف محل راحة، فلا يليق أن يؤتى فيه بما لم يكن في الوصل.

تنظر المسألة بالتفصيل في: شرح ابن عقيل ٤/ ١٧٢ — تحقيق الشيخ/ محمد محيي الدين عبدالحميد — الطبعة [٢٠] ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م — نشر مكتبة دار التراث بالقاهرة، وشرح الأشموني بحاشية الصبان ٤/ ٢٠٧.

ثالثًا: ص٤ الفقرة العاشرة — قلتَ: «لم يعثر المنظومي على رغم الزمان الطويل والمكان المطلق، إلا بخمسين منظومة...»

ثم قلتَ ص٩ — السطر [١٩] من أعلى: «... أعرض فيما يلي لما تيسر لي العثور به...»

ثم قلتَ أيضًا ص٢٦ — السطر [٢] من أعلى: «... إغفاله التمثيل بأبيات من كل منظومة عَثَرَ بها...»

أخي الباحث الكريم: الفعل (عَثَرَ) — هنا — يتعدى بحرف الجر (على). قال ابن منظور في: لسان العرب ٤/ ٢٨٠٦ (عَثَرَ) — طبعة دار المعارف بالقاهرة ـ: «عَثَرَ على الأمر يَعثُرُ عَثْرًا وعُثُورًا: اطَّلَعَ...»

أما تعدى الفعل في كلامك، أو في كلام من استشهدت بأقوالهم فهو يعني معنى آخر غير مقصود هنا، يقال: «عَثَرَ بِهِ فَرَسُهُ، أي: زلَّ وكَبَا.» يراجع: المعجم الوسيط ص٦٠٥ (عَثَرَ).

رابعًا: ص١٦ — السطر [٧] من أسفل — «مسألة جزم المضارع في جواب النهي» قلتَ: «...إذا جاز تقديم (إن) الشرطية على (لا) الناهية» كما في «لا تقربِ السَّبُعَ تَسْلَمْ» انجزم المضارع، وإلا لم ينجزم كما في «لا تقرب السَّبُعَ يأكلك.»

الراجح أن نُسَمِّيها (لا) النافية؛ لأنه إذا دخلت (إن) الشرطية — أو غيرها من أدوات الشرط — على (لا) الناهية، فقدت دلالتها على النهي، وصارت للنفي؛ لأن أداة الشرط لا تدخل على النهي.

فـ(لا) هذه حرف نهي باعتبار أصلها السابق، وحرف نفي باعتبار الواقع الذي انتهت إليه، والأخير هو ما رجحه كثير من النحاة. فينبغي التنبيه على ذلك. ينظر في هذه المسألة: شرح الأشموني على الألفية ٣/ ٣١١، والنحو الوافي ٤/ ٣٩٨ (عباس حسن — الطبعة التاسعة — دار المعارف بالقاهرة.

## الملاحظات الخاصة بالحواشي

(١) ص٣ — السطر [١٥] من أعلى — قلتَ:... اتفقوا على جواز استعمال القطع مع التمام في ضرب الأرجوزة المشطورة، إجراءً للعلة مُجْرَى الزحاف، لقول امرأة من جَدِيس:

---------------- ----------------

---------------- ----------------

لَخَوضِهِ بَحْرَ الرَّدَى بنفسِهِ خَيرٌ مِنَ انْ يفعَلَ ذا بِعرْسِهِ [٢١]

ثم قلتَ ص٢٧ ـ الحاشية رقم [٢١] ـ: الصبان ١/ ١٤.

وبرجوعي إلى الطبعة التي رجعت إليها من حاشية الصبان، لم أقف على هذه الأبيات، أو ما يشير إلى هذه المسألة، فينبغي توثيق الأبيات من أي مصدر آخر.

(٢) ص٩ قلتَ ـ عن «منظومة الخليل بن أحمد الفراهيدي» ـ: «... فإن بعض العلماء العمانيين كانوا على معرفةٍ بهذه المنظومة، ونسبتها إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي... كما نجد ذلك في بعض المكتبات الخاصة العمانية» [٦٠]

(٣) ثم قلت ص٢٨ في الحواشي: [٦٠] ابن عصفور: الممتع في التصريف ١/ ٣٠، ٣١.

أخي الباحث: ما علاقة هذه الحاشية بما ذكر سابقًا.

(٤) ص١٠ قلتَ ـ عن «منظومة الزامِليّ والخروصي» ـ:... صنع الزامليُّ ثلاثة وثمانين ومائتي بيت منها، في أبواب نحوية كثيرة، مطلعها بين يدي مقدمة في بيان الغاية، قوله:

حَمْدًا لِمَنْ فتح الأبوابَ والسُّبُلا لِمَنْ نَحَا نَحْوَهُ مِنْ قادةٍ نُبَلا
ثُمَّ الصلاةُ مَعَ التَّسْليم مِنْهُ عَلَى أَزْقَى الوَرَى شَرَفًا أَزْكاهُمُ عَمَلا [٧٤]

وقلت ـ في نهاية الصحيفة عن هذه المنظومة ـ: «...ثم لا علم لي بأنها درست، أو احتفى بها...»

ثم قلتَ ص٢٩ في الحواشي:

[٧٤] الكندي (الدكتور/ إبراهيم بن أحمد بن سليمان): «السالمي أديبًا ولغويًا»، بحث بكتاب «قراءات في فكر السالمي»، صدر عن وزارة التراث القومي والثقافة العمانية... إلخ.

أخي الباحث: أرى أنه لا علاقة بهذه الحاشية مع ما ذكرته عن منظومة «الزاملي والخروصي».

ويتضح مما سبق وجود بعض الاضطراب والتداخل بين الحواشي. وهذه الحاشية المذكورة برقم [٧٤] ينبغي أن توضع مكان الحاشية رقم [٧٣]؛ لأنك قلتَ ـ ص١٠ عقب

حديثك عن «منظومة عبدالله بن حميد السالمي» ـ: «وقد درسها لندوة قراءات في فكر السالمي»، بعض الباحثين [٧٣].

(٥) وهذا الخلط السابق، والتداخل بين الحواشي، وقع أيضًا بين الحاشيتين [٨٠]، و[٨١]. راجع ص١١، و٢٩، لتصويب ذلك.

(٦) ص١٣ السطر [٥] من أسفل ــ قلتَ: إنه إذا كان النحو رفع أواخر بعض الكلمات، أو نصبها، أو جرها، أو جزمها، كما قال الناظم العماني الأول:

النَّحْوُ رَفْعٌ في الكلامِ وبَعضُهُ خَفْضٌ، وبَعْضٌ في التَّكَلُّمِ يُنْصَبُ [٩٩]

ثم قلت ص٣٠ في الحواشي:

[٩٩] الرضى (محمد بن الحسن): «شرح شافية ابن الحاجب»... إلخ

أخي الباحث: الحديث هنا عن النحو، لا عن التصريف. والمعروف أن كتاب «شرح شافية ابن الحاجب» كتاب في الصرف.

والصواب في هذا المقام أن يكتب في الحاشية:

الرضى (محمد بن الحسن): «شرح كافية ابن الحاجب»... إلخ.

(٧) ص١٦ ــ السطر [١٤] من أسفل ــ قلتَ: وفيه يحذف الطابع من مادة اللغة ما يفسدها ويفسد العروض، على نحو ما في هذا البيت:

كَهَذَبَنْ واسْلُكَنْ سُبْلَ الرَّشادِ بهِ     واخْبرَنْ سَعِيدًا بالذي جَهِلا [١٢٢]

فهي (أَخبِرَنَّ) من إخبار سعيد، لا من التحلي بالخبرة، وبهذا الخطأ ينكسر الوزن ثم قلت ص٣٠:

[١٢٢] ابن منظور: (سمو).

أقول: لعل هذا من خطأ الطبع؛ لأن الصواب: ابن منظور (خبر)، هذا بالإضافة إلى أن رقم الحاشية يوضع عقب قولك: «... لا من التحلي بالخبرة.»[١٢٢]

وقولك في الحاشية [١٢٢]: ابن منظور: (سمو) ينبغي أن يكتب مع الحاشية رقم [١٢٠]

(٨) هناك مراجع ذكرتها بإيجاز، دون أن يسبق لها ذكر، وأحيانًا تذكر المؤلف بإيجاز، دون ذكر الكتاب، ومن ذلك:

أ. في الحاشية رقم [٢٣] قلت: ابن جنى ١/ ٣٤ــ ما اسم الكتاب الذي تقصده، فضلًا عن ابن جنى لم يسبق له ذكر ــ وأرجو مراجعة هذه الحاشية مع الحاشية [٢٢].

ب. في الحاشية رقم [١٤٠] قلت: أيوب: ١٣٥ ـ ١٣٦، ولم يسبق ذكر للمؤلف وكتابه.

ج. في الحاشية رقم [١٤١] قلت: أنيس: ٢٤٨، والأمر كما سبق.

(٩) هناك مراجع لم تذكرها بالتفصيل عند أول ورود لها، ثم عند ذكرها ثانية تذكرها ومؤلفها بالتفصيل. ومن ذلك:

أ. قلت في الحاشية [٦١]:...، وراجع الفارسي: ١٦. في حين لم يسبق الحديث عنه بالتفصيل، ثم ذكرت ذلك بالتفصيل في الحاشية [٧٥].

ب. قلت في الحاشية [١٢٠]ـ: ابن عقيل ٣/ ٣٩، ثم ذكرته بالتفصيل في الحاشية [١٢٩].

### الملاحظات الخاصة بأخطاء الطبع

(١) جاء في ص٤، ٩، ١٢: وفاة الخليل بن أحمد سنة [١٨٠هـ].

ولعل هذا خطًا في الطبع، والصواب أن وفاته سنة [١٧٥هــ]. راجع: نشأة النحو، وتاريخ أشهر النحاة، للشيخ محمد الطنطاوي ص٧٩ــ الطبعة الخامسة ــ دار المعارف بمصر ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م. وهذا ما أثبته الدكتوران: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي على غلاف كتاب العين، للخليل بن أحمد ــ مؤسسة دار الهجرة.

(٢) جاء في ص٥ ــ في الجدول ـ: أن وفاة محمود بن حمزة الكرماني سنة [٥٢٠هـ].

والصواب وفاته في نحو [٥٠٥هـ]. راجع: الأعلام للزركلي ٧/ ١٦٨ ــــ الطبعة الرابعة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٩م.

(٣) جاء في ص٨ ـــ السطر [١٢] من أعلى ـ: وعلى حين تكاثرت المنظومات والقرونَ...

والصواب: والقرونُ، بالرفع عطفًا على «المنظومات».

(٤) جاء في ص١٠ ـــ السطر [١٠] من أعلى ـ:

وآلـهِ وصحبـهِ ومَنْ تَـلا سبيلـُهم من غير أنُ يُبَدَّلا

الصواب: (سبيلـَهم) بالنصب ـــ و(أنْ) بتسكين النون.

(٥) جاء في ص١٠ ـــ السطر [١٥] من أعلى ـ:

منظومة عبدالله بن حميد السالمي... في ثمانيةٍ وعشرين ومائتي ١٢٨ بيت.

والصواب: [٢٢٨].

(٦) جاء في ص١٦ ـــ السطر [١٠] من أسفل ـــ:

إن صح جعلك ان من قبل لا جزمـوا أولا فلا والكسائي جزمه قبـلا

والصواب: (إنْ)، وإلا انكسر الوزن.

كما أرجو مراجعة ضبط البيت الأول الوارد في هذه الصفحة أي صفحة ١٦ ـــ السطر [٥] من أعلى.

(٧) جاء في ص١٧ اضطراب في أرقام الجدول، ابتداء مـن رقـم [٥٩]؛ إذ جـاء بعـد هـذا الرقـم [٦٥]، فأرجو مراجعة هذه الأرقام، وعنوان رقم [٦٦]، ثم تكرر رقم [٧١] في الصفحتين ١٧، ١٨.

(٨) جاء في ص٢٠ ـــ السطر [٩] من أعلى:

... إلا هذه الثلاثة: «المدغمات» كما سمت...

أرجو مراجعة هذه الكلمة، وضبطها.

(٩) جاء في ص٢٧ ـــ الحاشية [٢]:

.. ترجمه محي الدين صبحى...

الصواب: محيي الدين، بإثبات الياء الثانية أيضًا.

(١٠) جاء في ص٢٧ ـــ الحاشية [١٧]:

... عيسى البابي الحلبي وشكاه.

الصواب: وشركاه.

(١١) جاء في ص٣٠ الحاشية [١١١]:

«... نرجو أن يكون هذا العمل وغيره دافعًا للدارسين للنظر باهتمام وجد للتراث العماني...»

لعل هذا من خطأ الطبع، والصواب هنا التعدية بحرف الجر (إلى) لا (اللام)، فيقال:

... دافعًا إلى الدارسين للنظر باهتمام وجدٍّ إلى التراث العماني.

يراجع: لسان العرب: (دفع)، و(نظر)، وكذا المعجم الوسيط.

## الملاحظات الخاصة بشكل كتاب الأبيات

أخي الباحث:

لقد بذلتَ جهدًا محمودًا في ضبط الأبيات، وتخريجها، وأغبطك على حسك العروضي المتميز، إلا أن من تولى طباعة بحثك، قد كتب الأبيات بطريقة كتابة النثر، وكنا نعذر الطابع فيما طبع لو أن هذه الأبيات أو بعضها من قبيل ما يعرف بالمدرَّج — ويقال له: المداخل، والمدمج، والمدور — وهو الذي البيت الذي اشترك شطراه في كلمة واحدة، بأن يكون بعضها من الشطر الأول، وبعضها من الشطر الثاني. بالإضافة إلى أن ضيق المسافة بين الأبيات جعل الضبط متداخلًا وغير واضح أحيانًا.

لذا أرجو ترك مسافة بين كل بيت وآخر، بل بين شطري البيت الواحد.

وأخيــــــرًا:

يفضل أن تفرد ثبتًا مستقلًا بمراجع بحثك، وإن كنتُ أعلم أنك اكتفيت بذكرها مفصلة في الحواشي. كما أعلمُ أيضًا أن بعض الأخطاء التي وقعت في تضاعيف بحثك، هي من كلام من استشهدت بأقوالهم.

والله أسأل أن يلهمني وإياك السداد، والإخلاص في الفكر، والقول، والعمل.

رد الباحث على المحكم في رسالته إلى المجلة:

سعادة أخي الكبير، الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الله غلوم،

عميد كلية الآداب بجامعة البحرين، ورئيس تحرير مجلة العلوم الإنسانية،

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

أشكر لكم حسن تلقيكم بالقبول، بحثي « المنظومات النحوية العمانية بين المنظومات النحوية العربية: تأريخ ونقد »، وحسن اختياركم لمن تحكمونه فيما يرد عليكم؛ فما أحسن ما تأتي إلى نقده، وتلطف في مسه.

ومثلكما لا يراجع فيما قضى، ولكن ما وجدته فيكما من الأخلاق الشريفة، نبهني إلى أن الحق عندكما أحق بأن يتبع، والمحق بينكما أجدر بأن يستمع؛ فاحتفزت إلى بيان ما يلي:

الملاحظات الخاصة بسلامة اللغة

أولا: ليس المصدر ـ ومثله سائر المشتقات ـ كفعله، بل أقل منه منزلة، ومن ثم يَلْزم بالتضييق بلام التَّقوية تُضاف إلى مفعوله الذي بعده، على رغم تعدي فعله، وإن جاز تعديه؛ ومن ثم يجوز لي أن أجري على مثل قول الحق ـ سبحانه ! ـ: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ}، وأن أقول: « ذكره لمنظومته »، الذي يشبه المصدرُ فيه، الفعلَ المتقدم عليه مفعولُه، في قول الحق ـ سبحانه ! ـ: {لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ}.

ثانيا: لم أوثق النص من كتاب « المنظومات النحوية وشروحها: حلقة من تاريخ النحو »، للدكتور محمود نجيب، ص٢٣، ولكن دخلت حاشية أخرى على الحاشية، كما تفضلتم في موضع من نقدكم؛ فوجب علي أن أميزها منها. أما إثبات الياء فوجه جائز استعمله الصبان، كان ينبغي أن أنبه عليه، وقد فعلت.

ثالثا: لقد كنت أردت بـ« عثر بـ »، معنى صادف، الذي لم تكن « عثر على »، لتؤديه، ولكنني رجعت إلى ما نبهتم.

رابعا: نبهتُ في الحاشية على صيرورة (لا) الناهية بعد أداة الشرط، نافية.

## الملاحظات الخاصة بالحواشي

(١ ـ ٦) لقد أدت ضربة واحدة قبل آخر سطر من أسطر حواشي البحث، إلى إضافة رقم ترتيبيٍّ لا وجود له؛ فتَرَحَّلَتْ ما بعده من حواش على ما نبهتم؛ فأعادت الأمر إلى نصابه ضربةٌ واحدة مثلها !

(٧ ـ ٨) ولقد أوقعني فيما نبهتم عليه من اضطراب مواضع توثيق المراجع، ما حاولته وذكرته لكم من أعمال الاختصار، ولقد ضبطتها.

ولعل مما يشفع لي عندكم، أن أنبه على أنني أنا لا غيري ـ ولله الحمد، وعليه المعتمد ـ كاتب بحثي على جهازي من العدم، دون أن أكون سوَّدت به ورقا قط، وهي كما تعلمون، مغامرة عزيزة في مثل هذا المجال.

## الملاحظات الخاصة بأخطاء الطبع

(١ ـ ٢) أما ما ذكرتموه، من أخطاء سنوات الوفيات التي وقع فيها المنظومي ولم أنتبه إليها، فقد أخذت به، ثم نبهت عليه في الحاشية (٤٠).

(٣) وأما « القرون »، فمنصوبة مفعولا معه، لا مرفوعة معطوفا.

(٤) وأما البيت المصوب في هذا الرقم، فلا خطأ فيه، إلا آثار ضَمِّ الأسطر إلى نصف مسافة، وإذا زدتموها أنتم إلى مسافة كاملة، عرفتم صحة ما أقول. ولقد اجتهدت ألا أضم الأسطر إلا في الجداول، وربما أفلت ذلك مني على رغمي، وقد داويته.

(٥) وأما تصويبكم ١٢٨ إلى ٢٢٨، فقد أخذت به.

(٦) وأما ما نبهتم عليه هنا من أخطاء، فهو مقصود لتصويبه.

(٧) وأما ما نبهتم عليه هنا من اضطراب، فقد ضبطته.

(٨) ولقد شكلت كلمة « سَمَّتْ » التي أنكرتموها هنا؛ فهي صحيحة في أصلها عائدة كما يدل سياقها، إلى المنظومة العمانية.

(٩) وأثبت ياء كلمة « محي »، كما نبهتم.

(١٠) وصححت كلمة « شكاه »، إلى « شركاه »، كما نبهتم، وإن كانت عربيتها « شركاؤه »، ولكنه الاسم يشيع حتى لا نملك لخطئه حيلة !

(١١) ولو كان الأمر إليَّ لصححت ما نبهتم عليه هنا، ولكنه لغيري، غير أنني أستطيع أن أعلق عليه !

الملاحظات الخاصة بشكل كتاب ـ هكذا، ولعلها كتابة ـ الأبيات

أما ما نبهتم عليه من أمر المسافة الكاملة التي سبقت إشارة إلى مشكلتها وسببها، فقد عالجته.

وأما وصل شطري كل بيت، فهو مقصود دائما أصطنعه بما أكتب من الشعر العربي، إخلاصا لحقيقة عمل الشاعر، وتمسكا بما وجدت بمخطوطاته القديمة، وبما تعلمته من أستاذي محمود محمد شاكر ـ رحمه الله! ـ كما نبه في «كتاب الشعر» المستخلص من مقالاته «نمط صعب ونمط مخيف».

وأما إفراد المراجع بثبت، فمما يزيد البحث طولا، وعلى هذا كان الأمر من قبل أن أغيره بأمركم.

الملخص العربي المطلوب

هذا الملخص المطلوب، أضيفه هنا سريعا، من قبل أن أترجمه؛ فربما اختصر وقتا:

المنظومات النحوية العمانية بين المنظومات النحوية العربية

تأريخ ونقد

ملخص

انقطع بعض الباحثين، لاستقراء المنظومات النحوية، منذ القرن الهجري الثاني، إلى الثالث عشر، على أنها حلقة من تاريخ النحو، ولم يمنعه من ذلك طول زمان، ولا إطلاق مكان؛ فكان في عمله إخلال شديد بماضيها وحاضرها وبعيدها وقريبها، ولا سيما في عمان التي تيسر لي أن أطلع على طرف من حياتها بها.

أقبلت أعرض بنقد عمله أوّلًا، للمنظومات النحوية العربية، وبتأريخ العمانيات ونقدها ثانيًا، للمنظومات النحوية العمانية، وبما اصْطَفَيْتُهُ منها آخرًا، لما يَزيدُ العملَ عُمْقًا والقارئَ نَفْعًا.

ولعل هذا البحث أن يكون وُفِّق إلى بيان ما يقوم بالمنظومات النحوية: العربية على العموم، ثم العمانية على الخصوص، ثم الزاملية الخروصية على خصوص الخصوص - من دلالة قوية بديعة على وجه من تاريخ النحو. أما قُوَّتُها فَبِبَقائها إلى الآن؛ فليس أقوى من الدليل الباقي، وأما بَداعَتُها فَبِصُدورِها عن نُزوع العلماء إلى الفن؛ فليس أبدع من الدليل المُرَكَّب.

---

وبعد — أخي الكبير — فهل أطمع في أن تستصدر لي خطاب إجازة للنشر بتاريخ أول هذا العام، حتى أستفيد من هذه الموافقة الجليلة.

ولكم شكري الجزل.

محمد جمال صقر.

Saqr٣٦٩@hotmail.com

## مِنْ حِواراتِ الصُّحُفِ الْيَوْمِيَّةِ

**عبد الرزاق الربيعي (شاعر صحفي عراقي، يشرف على « آفاق » الملحق الثقافي لجريدة الشبيبة العمانية):**

عملت بجامعة السلطان قابوس سنوات، واليوم تعود إليها زائرا؛ فماذا يعني لك هذا الصرح العلمي؟

**محمد جمال صقر:**

لقد مازجت حقيقة هذه الجامعة فترة كانت فيها شغلي ومضمار ركضي، ثم مازجت خيالها فترة كانت فيها أذكار صباحي ومسائي؛ فكافأني المقدار بوصل ما بيني وبينها؛ فأنا الآن في حيثُ تَمَنَّيْتُ، كأنما تيسرت لي آلتا زمان ومكان معا، فراجعت بهما ما كان !

إن في عقلي وقلبي من هذا الصرح العلمي الباذخ، معنى الحرية الرشيدة؛ فمن طبيعة الجامعات الحديثة أن تستنفر طاقات أساتذتها إلى آخر وسعهم، لا كالجامعات القديمة التي تكفكف منها إلى آخر ضيقهم بسلطان التقاليد القوية الراسخة المتسلطة. وأقل ما يقابل به الأستاذ تلك الحرية المتاحة له أن يطلق من أجلها عن خيول إبداعه إلى آخر مدى السبق.

**عبد الرزاق الربيعي:**

طريق الألف ميل يبدأ بخطوة؛ فكيف كانت خطواتك الأولى في عالم النقد؟

**محمد جمال صقر:**

كان « الاختيار » أولى تلك الخطوات، كما قال صاحبنا:

نابَ عَنْكَ الَّذي تَخَيَّرْتَ إِذْ كانَ دَليلًا عَلى اللَّبيبِ اخْتِيارُهْ

اخترت الدراسة التي تلائمني وتنفعني؛ فلا أحب أن أُعَطِّلَ مَيْلي، ولا أن أُضَيِّعَ وَقْتي. وهكذا قليلا قليلا تَجاوَزْتُ من اختيار الكلية، إلى اختيار القسم، ثم إلى اختيار رسالة الماجستير، ثم إلى اختيار رسالة الدكتوراه، ثم إلى اختيار الأبحاث التالية بحثا بحثا.

لقد تيسر لي أن أعاني في ذلك كله، أفكارا خَطَرَتْ لي في خلال اجتهادي في طلب علوم اللغة العربية وفنونها، وأن أعالجها، وألا أخضع لأفكار غريبة عني مهما كانت وكان مفكرها ! ومن ثم لا أحب لطالب أي من تلك العلوم والفنون، أن يجلس إلى طلابٍ مثله — وكل أهلها طلاب في حضرتها - يَتَكَفَّفُهُم مسألة علمية أو فنية !

ولقد أنشأ لي ذلك مشكلات ربما خافها مثل هؤلاء الطلاب المتكففون، من مثل أن من يتبنون أفكاره يظل يكلؤهم ويذود عنهم، حتى إذا ما خالفوه إلى أفكارهِمْ هُم اطَّرَحَهُمْ للسباع ! ولكنني انتهيت إلى أن هذه الحياة الواحدة التي نحياها، تحتاج إلى أن نغامر ونتحمل في سبيل أن نكون أنفسنا لا أن نكون غيرنا ! بل انتهيت إلى أن هذا المسلك الشريف نفسه، كفيل أخيرا بعطف أولئك الأساتذة الغاضبين، على هذا السالك، بعدما يرون من صدقه وجِدِّه واجتهاده ونزاهته.

**عبد الرزاق الربيعي:**

وماذا عن الكتابة الشعرية، وإلى أي جيل شعري تنتمي، وهل أخذتك الجامعة من الشعر؟

**محمد جمال صقر:**

كانت منزلة عمل الشعر عندي دائما، بعد منزلة علمه: أقرأ، وأستمع، وأجتهد أن أسبر غور الشعر، وأعرف سره. وربما عكفت حينا على عمل قصيدة في فكرة من همومي، حتى تجمعت لي مجموعتان: «لبنى» - وقد صدرت عن دار القبس بالقاهرة سنة ١٩٩٤م، و«براء» - وقد صدرت عن دار المدني بالقاهرة سنة ٢٠٠٠م - أهديت منهما لمكتبة جامعة السلطان قابوس، ولكثير من أصدقائي؛ فكان من رأي بعض شعرائهم أنني أشبه السَّبْعينيّين المصريين، على رغم تأخري عنهم عقدين من الزمان تقريبا !

ثم انقطعت إلى علم الشعر، ولم أعد أجد من الوقت ولا من الجهد، ما أبذله لعمله؛ ولا سيما أنني شديد الطلب لعلم الشعر، حريص على تطوير علمي به وتهذيبه، مؤمن بضرورة مزج حقائق علم الشعر الأكاديمي بروحه الفنية، في سبيل حسن استيعابه وتعليمه.

**عبد الرزاق الربيعي:**

كيف ترى واقع النقد الأدبي؟ وهل تراجع لصالح النقد الثقافي؟

**محمد جمال صقر:**

من رأيي أن النقد الأدبي طرف من النقد الثقافي، ومن مزايا تخصيص جهة النظر التجويدُ؛ فكل من أراد البحث عن حقيقة مسألة، ثم قصر بحثه على جانب منها معين « الأدبي »، كان حريا أن يصل إلى حقيقتها وأن يحسن فهمها وإفهامها، وكل من فتح بحثه على الفضاء الكبير « الثقافة »، كان حريا أن يصل إلى أشتات من معالمها مجتمعات، إلا أن يؤتى من القوة والقدرة والفضل، ما يجعل تعميم جهة النظر بمنزلة تخصيصها، ومثل هذا قليل، وسيظل قليلا، ومنهم الآن الدكتور مصطفى ناصف، الناقد الفيلسوف، الأستاذ بجامعة عين شمس.

**عبد الرزاق الربيعي:**

هل توافق من يقول إن النقاد شعراء تعطلت قوى الإبداع عندهم؟

**محمد جمال صقر:**

اختلف الناس من قديم في نقد الشعر؛ أيجعلونه في علوم اللغة أم في فنونها؛ فللغة أجهزتها المعروفة (الأصواتُ، وصيغُ الكلم، ومعاني الكلم، والتَّراكيبُ)، التي تدرسها علومها المعروفة (علم الأصوات، وعلم الصرف، وعلم المعجم، وعلم النحو)، وليس منها علم النقد !

ولكن لها فنونها المعروفة التي تكون بمعاملة أجهزتها السابقة معاملة خاصة، ولابد من أن تدرس فنون الأجهزة كما تدرس الأجهزة. فإن أضافتها علوم الأجهزة إليها لم يستطع أحد أن يخرج دراستها عن أن تكون علما، لأنها تجري عليها مناهجها، حتى تنتهي إلى قواعد ونظريات

ضابطة. وإن لم تضفها بقيت على حَرْفٍ؛ فمن متناوليها من يميل إلى طريقة علوم الأجهزة فيقارب العلمية، ومنهم من يميل إلى طريقة فنون الأجهزة فيقارب الفنية، وهؤلاء الآخرون هم الذين يوصفون ذلك الوصف « شعراء تعطلت قوى الإبداع عندهم » ! وهو وصف سَخِطَ به عليهم من يرى أن يضاف البحث عن فنون الأجهزة، إلى علوم الأجهزة، أي أن يضاف إلى علم الأصوات مثلا، تفنن الشعراء في استعمال الأصوات.

عبد الرزاق الربيعي:

هل ترى أن العمل الأكاديمي قتل الكثير من المواهب الإبداعية من المشتغلين بهذا الحقل؟

محمد جمال صقر:

لا يصح فعل القتل هذا إلا في حالتين:

العمل الأكاديمي الكئيب المظلم الذي لا يقدم ولا يؤخر، وليس للعامل به منه إلا الجوع والعطش !

الموهبة الإبداعية اليائسة المتزعزعة على حرف غير معتمدة على عقيدة ثابتة، وليس للفن منها إلا الجوع والعطش كذلك !

أما إذا تَيَسَّرَ للموهوب الآمِلِ المكين، العملُ الأكاديمي المُزْهِرُ الوَهّاجُ، فإنه يجتهد فيه كما يجتهد في عمل من فنه القديم، ولا يخلو نتاجه العلمي من طبيعته الفنية.

وينبغي لمثل هذا الموهوب الأكاديمي ألّا يُجالِسَ الذي يخوضون في ذلك الأصل؛ فليس في مُجالَسَتِهِمْ إلّا البَلَهُ والتَّفاهَةُ !

**عبد الرزاق الربيعي:**

كيف ترى واقع الشعر العماني؟

**محمد جمال صقر:**

ربما كانت عمان من أكثر البلاد العربية تقديرا للشعر العربي، حتى لتجد العمانيين يقدمون الشاعر على أنفسهم ويُبَجِّلونه، على نحو مفتقد في كثير غيرهم.

وفي الشعر العماني ما كان في الشعر دائما، من شعر قريب المعنى أشبه بمنظومات المتون، وشعر بعيد الغور أشبه بأعمال التشكيل الفنية التعبيرية.

وبمثل هؤلاء الآخرين ينبغي أن نعتني؛ فنشجعهم على المضي في منهجهم الذي ينير من بصيرة الإنسان، ويخصب من حياته، فيزيد من إنسانيته ـ ونعرضهم نموذجا يحتذى، من دون أن نسفه أحلام الذين لا يقدرون على تلقي شعرهم، بل نُثْني على تقديرهم للشعر مهما كان، ونُشَجِّعهم، ونُثَبِّتهم ـ فهو نعمة تستحق الشكر لكي تبقى وتزيد، لا الكفر لكي تزول ـ ثم نأخذ بأيديهم قليلا قليلا إلى الشعر الحق، كما نعلم تلامذتنا الحقيقة بعد الزيف.

**عبد الرزاق الربيعي:**

ماذا يعني لك اختيار مسقط عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٦م؟

**محمد جمال صقر:**

يعني الكثير؛ فإنه علامة الوعي العربي الذي نتمسك به، سعيا إلى حاضر زاهر شامل؛ فلا قيمة لعاصمة عربية منفردة منقطعة من أخواتها. ثم هو شهادة تقدير أخوية، تثني على ما تحقق لمسقط النائبة في الذكر عن عمان كلها. ثم هو باب العمل المضني قد انفتح ليدخل منه المخلصون الحريصون على حاضر عمان ومستقبلها؛ فينشطوا لكل قديم مُجْدٍ وحديث مأمول، عسى أن تتكون شبكة أعمال ثقافية ملائمة، ينبغي أن تستمر بعد هذا العام إلى أن يأتي مرة أخرى بما يندهش له المتابعون، أن يكون تم بين العامين.

**عبد الرزاق الربيعي:**

**كيف تنظر إلى الحداثة مفهوما؟**

**محمد جمال صقر:**

لَمّا كان بين المتعاصرين على رَغْمِ تَعاصُرِهِمْ، مَنْ يَحِنُّ إلى ماضيه ويعمل له، ومن يشتغل بحاضره ويعمل له، ومن يطمح إلى مستقبله ويعمل له ـ تَسَمّى أَوَّلُهُمْ قَداميًّا، وثانيهم حَداثيًّا، وآخِرُهم مُسْتَقْبَليًّا. ولا حياة ولا بقاء لثقافة لم تَحْظَ مِنْ حَمَلَتِها بأولئك الثلاثة (القداميين، والحداثيين، والمستقبليين) جميعا معا، على ألا يغفل بنوها عن تكاملهم ــ وإن بدوا متناقضين ــ فالحاضر ابن الماضي، والمستقبل ابن الماضي والحاضر جميعا، ثم هو أمل الحاضر، كما كان الحاضر أمل الماضي، وعلى ألا يغفل بنوها كذلك عن السِّلْك الذي ينتظمهم في عقد ثقافة واحدة وإن بدوا مختلفين؛ فلا انتسابَ لثقافة بحيث يقال: عربية أو إنجليزية أو صينية أو يابانية، حتى تسلم لها أصولُ نظام اللغة والتفكير، مُسْتَمِرَّةً في الماضي والحاضر إلى المستقبل.

**عبد الرزاق الربيعي:**

**ما أهم المشكلات النقدية التي يعاني منها النقد العربي؟**

**محمد جمال صقر:**

ضعف الإيمان بالعروبة أُسُّ المشكلات الثقافية كلها؛ فالناقد الواقف عند مقالات غيره احتقارا لتراث أمته، والناقد المخالف عن المصطلحات حرصا على خصوصية خادعة، والناقد المُطَّرِح من يده يد قارئه في سعيه إلى المنقود، والناقد اللاهج بالتنظير كبرا على النصوص... كل أولئك أمراض نقدية مشكلة، علاجها الإيمان بالعروبة والثقة فيها والانطلاق منها والإخلاص لها.

**عبد الرزاق الربيعي:**

**هل تبلورت ملامح نظرية نقدية عربية؟**

محمد جمال صقر:

أدعوك إلى قراءة كتابين للكاتب الأديب الفذ محمود محمد شاكر:

« رسالة في الطريق إلى ثقافتنا »، الصادر وحده مرة عن دار الهلال، ومرة في مقدمة كتابه « المتنبي » عن مطبعة المدني ومكتبة الخانجي بالقاهرة.

و« نمط صعب ونمط مخيف »، الصادر عن مكتبة الخانجي بالقاهرة.

إنك إن قرأتهما، وصبرت عليهما، ولم تلفتك عنهما صورة صاحبهما المختلف فيها، وقفت على نظرية نقدية عربية أصيلة متروكة مهملة، لم يخترعها الرجل، ولكنه بذل في تعلمها من عمره ونفسه، ثم أقبل يعلمها أمته؛ فأنشأها نشأة أخرى. ولا تقل لي: كتاباه أنفسهما نمط صعب مخيف؛ فإنه كلام أشبه بالذنب منه بالعذر !

وكل ما حاول ويحاول تقديمه كثير من علمائنا من مثل الدكتور عبد العزيز حمودة، والدكتور محمد أبو موسى على بعد ما بينهما - عيال على ما قدمه ذلك العلم الفرد، رحمه الله !

في أول الكتابين تنظير وتأريخ واستبانة، وفي الآخر تطبيق وتذوق وإبانة، ولا يستغني عنهما باحث عن تلك النظرية النقدية العربية.

# لَيْلَةُ أدونيسَ

أخرج عبد الله الريامي الشاعر العماني، قصيدة علي أحمد سعيد أدونيس الشاعر السوري، « قَبْرٌ مِنْ أَجْلِ نِيويورْكَ »، التي قرأنا في كراماتها أنها كانت وراء تَفْجيرَيِ الحادي عَشَرَ من سبتمبر، بنيويورك وواشنطون - إخراجا مسرحيا تعبيريا، معتمدا على مُمَثِّلٍ مَغْرِبِيٍّ - أَشْكَّ - مُتْقِنٍ « عبد القادر »، ومُمَثِّلَةٍ عُمانيَّةٍ - أُرَجِّحُ - مُتَوَسِّطَةٍ « شريفة البلوشية »، وصوت أدونيس نفسه من وراء المسرح، وألحان مرسيل خليفة.

كان ذلك على مسرح حِصْنِ الفُلَيْجِ قُبَيْلَ بَرْكاءَ من منطقة الباطنة بسلطنة عمان، في الثامنة والنصف من مساء الاثنين ٣٠/ ٧/ ١٤٢٣هـ=٧/ ١٠/ ٢٠٠٢م.

ولما كنتُ آنئذ أكتب في « تَفْجير نِظامِ اللغة والتفكير »*، المنهج الفني الذي سَلَخَ أدونيس من عمره سنين عديدة مديدة يدعو إليه نظرا وعملا - عزمتُ على حضور المحفل على رغم سُكْنايَ في جامعة السلطان قابوس نفسها، بمنقطع عن طرق السيارات ولا سيارة لي، ولا أحتمل سؤال الناس مهما كانوا.

يَسَّرَ لي الله - سبحانه، وتعالى ! - سيارةً بعد سيارةٍ، فأما التي بَلَّغَتْني الغاية، فكانت ماءَ الحياة في ذلك الطريق الطويل الموحش المروع، بين شِرْيان الطرق إلى بركاء، وبين وريدها إلى خبايا القصور والحصون !

أعجبني المَحْضَر، وأتعبني المَجْلِس !

ثم بحثتُ عن مَكْمَنِ أدونيس، فلقيته بين طائفة من الموظفين العوام، فيهم « يوسف الكندي » الرجل الفاضل تلميذي بالماجستير، والممثل المغربي، فسلمت عليهم وعلى أدونيس باسمه « عَلِيّ » لا لقبه !

حدثته عن فكرة بحثي؛ فلم ينكرها، بلهجة عمانية؛ فقال لي بلهجة مصرية:

إنت بقى لك هنا كم سنة؟

قلت: هذه السادسة !

فلم يعقب، ثم سألني:

إنت إيه تخصصك؟

قلت: النحو والصرف والعروض !

فلم يعقب. أهديته نسخة من « براء » مجموعتي الشعرية الثانية، قائلا:

تَرى فيها كيف يكتب الشعرَ النَّحْوِيّونَ !

كاتبا في الإهداء: « علي أحمد سعيد أدونيس، تحياتي، مسقط في... »، ثم ندمت بعدئذ على أن لم أكتب « مسرح حصن الفليج »؛ فما أحب تعليق أقوالي وأفعالي بالأماكن، إليّ !

ثم شرحت له كيف وضعت « هذا هو اسمي »، بإزاء « قالت لي الأرض »، ثم كيف أعدت كتابة الشعر لأكشف وزنه؛ فلم يعقب، لا على طريقة الإعادة، ولا على باعثي إلى اختيار القصيدتين للموازنة، ولا على خصوصيته الحديثة. ثم سألته:

ألا يجوز أن نقول إنك كنت بمقالاتك في « زمن الشعر » وما أشبهه، كأنك ثائر يريد تنبيه مجتمعه الغافل؛ فلما انتبه كفَّ عما كان يردد، ولا سيما أنك ذكرت قرابة مئات في العالم العربي، ساروا على منهجكم، واتبعوا سبيلكم؟

قال: يمكنك، ثم ألا يكفي قضاء ربع قرن في ترديده !

ثم سألته عما يقصد بتَعْرِيَةِ جُذورِ الكلمات لاكتشاف الإيقاع الطبيعي الساحر الأصيل؛ فقال:

« هذا هو اسمي » قصيدة موزونة، بَنَيْتُها على التدوير، ولم أرفض الوزن، بل عاديت التكرار ودعوت إلى تجديد القالب.

ثم شرح كيف كتب المتنبي وأبو تمام من الطويل، فلم يكونا ولم يقولا شيئا واحدا. ولما حدثته عن رغبة حسب الشيخ جعفر أن يهشم التفعيلة، ذكر أنه لم يخرج أو ينخلع من الوزن ! ثم سألته:

ألا ترى النحو كفيلا باستيعاب كل من يتوهم أنه يخرج من أقطار اللغة والتفكير العربيين؟

فقال: لا ورود هنا لخروج، ولا حديث عنه، بل عن التجديد.

ولما سألته عن فقده الأمل في أساتذة الجامعة، قال:

عَنَيْتُ الأكاديميين !

ولما ذكرت له عبد الكريم حسن، قال وكأنما خشي أن أتهمه هو بالدكتوراه:

ليس بأكاديمي !

ثم حالت بيني وبينه الحِسانُ المُسَلِّماتُ عليه والخُشْنُ المُسْتَعْجِلوني؛ فاستأذنته، وذهبت عنه إلى جماعة تلامذتي وصحابتهم من طلاب جامعة السلطان قابوس، الذين التقوا على الافتتان بأدونيس، ولم أُنَفِّرْهُمْ منه.

لقد أحسست من أدونيس، الشَّيْخوخَةَ والإِنْهِدادَ، ورأيته قَلَّلَ مِنْ نفسه ـ إن لم تكن هذه طبيعته ـ بحضوره، ومشاركته، ومجالسته، ولا سيما أنه كان في أولئك المُجالِسيهِ، غَرِيبًا مُفْرَدًا !

ومن طرائف ذلك المساء، أن جماعة برنامجٍ مُتَلْفَزٍ، حضروا؛ فلم يختاروا للكلام عن العمل، غيري، ولم أكن أعرف ما سيكون إلا بعدئذ؛ فأخذت من كلام المذيع، وشرحت رأيي في أدونيس الشاعر، ومرسيل خليفة الملحن، ولم يكن لي علم بالريامي المخرج الشاعر ولا المُمَثِّلَيْنِ، لأقول فيهم شيئا !

ومن تلك الطرائف أنه سمعني أتكلم، لُبْنانِيٌّ يحب مواطنه مرسيل خليفة، فتطوَّع بتوصيلي إلى مسقط، فاعتذرت منه، ثم خرجنا معًا، فإذا هو شابٌّ لطيف يتعجب من أن يذكر مرسيل خليفة هنا أحد؛ فقلت له:

هؤلاء الشباب جميعا يعرفونه ويحبونه !

ثم تكلمنا في هذا المعنى، وفي أعمال كل منا، ثم لما هممنا بلقاء أدونيس اعتذر بما بينهما من مشكلات « عقائدية » !

كان اسمه إبراهيم فادي، أو فادي إبراهيم، وربما كان من شيعة لبنان المستنكرين على هذا الشيعي أدونيس مُروقَه، أو من سُنَّتها المستنكرين عليه عواقبَ تَشَيُّعِه !

ومن تلك الطرائف أن خميس بن قلم الهنائي تلميذي الشاعر الموهوب، وكان حديث عهد بحرية مِنْ عِقالٍ اعتقلته فيه قصةٌ ارْتَكَبَها ثم لم يزل مطلوبا بها ــ وجدني مُتَقَبِّضًا مُتَحَبِّسًا لأدونيس، فعَقَّبَ يَتَذاكى:

ما أشد تواضعك ! انظر كيف جلست إليه، ثم كيف نجلس نحن إليك !

يُمَوِّهُ بِتواضُعي وإِساءَتِهِم، تَصاغُرًا وتَكابُرًا؛ فَنَبَّهْتُه على أنها عادتي مع مَنْ لا أُلْفَةَ بيني وبينه مِمَّنْ أرى لَهُمْ خُصوصيَّةً ما !

ثم كان هو نفسه الذي عاد بي إلى بيتي بالجامعة !

* هو بحثي « تَفْجيرُ عَروضِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ أَحَدُ أَعْمالِ تَفْجيرِ نِظامِه »، المنشور بمكتبة مجلة أفق الألكترونية، ثم هو أحد فصول كتابي « سِرْبُ الْوَحْشِ: أَبْحاثٌ نَصِّيَّةٌ عَروضيَّةٌ »، المنشور عن مؤسسة العلياء بالقاهرة.

# طائِفُ الْقَدَرِ عَلى راقِصِ المَيْدانِ وَلاعِبِ السِّرْكِ

[ نظرة نقدية في علاقة قصيدة « الراقص العجوز » للشاعر العماني بدر الشيباني، الصادرة ضمن كتاب مهرجان الشعر العماني الأول، عن وزارة التراث القومي والثقافة العمانية سنة ١٩٩٨ م، بطبعة المطابع الذهبية بسلطنة عمان، ص١٤ — بقصيدة « مرثية لاعب سيرك » للشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي، الصادرة ضمن مجموعته « مرثية العمر الجميل » بديوانه، عن دار العودة ببيروت، بطبعته الثالثة سنة ١٩٨٢ م، ص٥٢٥ ].

إنها لسنة مستديرة تلك التي يطوف بها طائف القدر على البشر، فيحفز الشاعر المصري أحمد حجازي، إلى اتخاذ دائرة « السيرك »، ثم الشاعر العماني بدر الشيباني، إلى اتخاذ دائرة الميدان، مجال تعبير عنها وهي التي أوجزها الشاعر العراقي الشريف الرضي قديما بقوله:

« تمضي علينا ثم تمضي بنا »،

هكذا دواليك، لاتخرم منا حرفا؛ فإن صاحب حجازي ينزل إلى دائرة « السيرك » لاعبا بها، وصاحب الشيباني ينزل إلى دائرة « الميدان » راقصا بها، فتدور على كل منهما دائرته !

ولكل من الشاعرين وجهة هو موليها:

أما حجازي فإنما تعلق بالمفارقة التي تلبس لاعب « السيرك » كل ليلة، حين يجتمع جمهور غفير من الناس لا ينجو منه أحد أبدا من أخطاء أيسر الأعمال، إزاء رجل وحيد نحيل يجب أن يصطنع أخطر الأعمال وألا يخطئ في أي منها:

«في العالم المملوء أخطاء

مطالب وحدك ألا تخطئا

لأن جسمك النحيل

لو مرة أسرع أو أبطأ

هوى وغطى الأرض أشلاء ».

ولا ريب في أنه إنما يطالب بذلك ليندهش مشاهدوه الخطاؤون، لا لكيلا يهلك، غير أن الشاعر أراد أن يشدد من وطأة طائف القدر.

وأما الشيباني فإنما تعلق بالمعاناة التي تملأ أقطار نفس راقص الميدان الذي بلغ من خبرته بعمله أن تشتاق إلى أقدامه الأرض، ويكبر له عن اكتماله البدر، ويبتهج به الكون كله ـــ حين يدلف إلى ما تعود وخبر، فلا يكاد يدور دورته المشهورة المشهودة، حتى يفجأه عجز الشيخوخة:

«حرك... قدما... أخرى... وتقدم

ثانية تبقى كي تكمل دورة حزنك في لوحة رقص

وجه الليل لها يستسلم

حرك.. لاتبخس حق الأرض حنانا

من راحة أقدامك يلثم

حرك وتوزع أجزاء أجزاء في ثانية

يكبر فيها بدر الكون

إذا أقدامك تمنحه السقيا

في رقصة مطر تسقي الكون ولا تسأم».

وإنه لما يضرم نار معاناة راقص الميدان العجوز، ظنه أن نهاية دورته التي تبدأ فرح الآخرين، نهاية عمره، وعندئذ تعرض المفارقة أليمة غير مقصودة.

وقريب من ذلك ما يصطنعه لاعب «السيرك»؛ فله دائما وجهان: بديع؛ فإنه متى تم له أدهش الآخرين، وشنيع؛ فإنه متى تعثر به أهلكه، غير أنه تعود ذلك كل ليلة طوال عمره، فإن كان خطر له أول ليلة فقد غيبته عنه العادة، حتى إنه حين أدركته شناعة ما يصطنع، ودارت عليه دائرة «السيرك» ابتسم كما كان يفعل ختام عمل كل ليلة:

«حين تدور الدائره

يرتبك الضوء على الجسم المهيض المرتطم

على الذراع المتهدل الكسير والقدم

وتبتسم ».

أوكأنه تذكر ليلة أول ما عمل ذلك، حين فزع من أن يشتري بهلاكه دهشة الآخرين، على حين تلصق بالأرض قدم راقص الميدان، وكأنها تشعر بقرب فراقه، فينظر إلى قدمه ويعجب لها: على أي كانت وإلى أي صارت! ثم يبدو له أن إحجامه وإتمامه سواء؛ فقد قضى طائف القدر بأن تدور الدائرة، ومن ثم تأتيه وإن لم يأتها، وتختمه وإن لم يختمها:

« بُمْ... بم... بم... بُمْ

أقدامك لا تتحرك

ثانية تبقى كي تكمل دورة حزنك

في لوحة رقص... لكنك لا تتقدم

وتظل تراقب في صمت قدما

كانت مدن جنون لا تسأم

بم.. بم

تتقدم...

تتقدم نحوك دائرة الميدان لتسرق قدما

كانت دائرة الميدان بها تحلم ».

بين مبتدأ المحاولة ومنتهاها يمعن لاعب « السيرك » في المخاطرة ويراعي الناس ويتعمد إدهاشهم شديدا وينتظر تحاياهم، ويغفل عن حفر الخطأ التي نثرها طائف القدر على أرجاء دائرة « السيرك »، وسترها بسجاد الزينة:

« وأنت في منازل الموت تلج.. عابثا مجترئا

وأنت تفلت الحبال للحبال

تركت ملجأ وما ادّركت بعد ملجأ

فيجمد الرعب على الوجوه لذة، وإشفاقا، وإصغاء

حتى تعود مستقرا هادئا

ترفع كفيك على رأس الملأ

في أي ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ ».

ويجتهد راقص الميدان أن يتبع الخطوة الوئيدة عيرها لينهج لخلفه منهج الجسارة، غير غافل عن الحفرة التي جهزها له طائف القدر عند آخر خطوة:

« بم... بم...

ينهار جليد صفعته يد الريح

لكي يبقيك بعيدا لا تقدم

حرك

قد تمضي ثانية هي في عمرك كل العمر

وقد تخطئ فيها... لكنك تكتب في شاهد قبرك (إني أتعلم) ».

كلاهما قد نجذته الخطوب؛ فأما راقص الميدان فشيخ عرك الحياة طويلا، فعرف مبتدأها ومنتهاها، وأما لاعب « السيرك » فحسبه أن يعالج الخطر والناس كل ليلة طوال عمره. يرتبك لاعب « السيرك » فيسقط، ويضيق راقص الميدان فيحجم، فيفكر الشاعران فيما ألم بصاحبيهما عندئذ، فأما حجازي فيرى أن صاحبه قد ملأت عينه صورة من ماضيه، أو تأمل في صورته الحاضرة مزهوا بها، فشغل عن حساب خطوه:

« إذ تعرض الذكرى

تغطي عريها المفاجئا

وحيدة معتذره

أو يقف الزهو على رأسك طيرا

شاربا ممتلئا ».

وأما الشيباني فيرى أن صاحبه قد أعجزه قيد السن (صورته الحاضرة)، أو سطعت له شمس فتوته (صورته الماضية)، فأحجم عن خطوه:

« تتكبل أقدامك لا تقوى

ثمت حيات تلبس أقدامك دائرة القيد »

« ترسم كف الشمس أمامك خطا

تلمحها فيه عناقيدا تلمسها الريح

لتخطف بصر الأشياء بدون تكلم

تمتد برقصتها في عمقك... تسقيك جنونا

يجعل عقلك مأخوذا كالطفل إذا يحلم ».

وهما قريب من قريب، ولا عجب؛ فمن قديم قال الأخطل: « نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة »، وفي حديثٍ قال محمود درويش: « أنا مدينة الشعراء »، وفي كلٍّ إشارة إلى امتزاج المتأخر من الشعراء بالمتقدم، ودبيب المتقدم بالمتأخر، امتزاج المعادن بالسبيكة، ودبيب الدماء بخلايا الجسم، وأطرف ما في هذه المسلة أن الشاعر لا يعيها، ولو قد وعاها لأفسد عمله، ولأمر ما نصح متعلم الشعر قديما بأن يذهب فينسى ما حفظ !

ولقد كان فيما سبق، كثير من علامات أصالة رسالة الشيباني، على رغم تأخرها عن رسالة حجازي ونظرها إليها.

وإن من علامات أصالة وسائل الشيباني إلى أداء تلك الرسالة، اختياره بحر المتدارك: « فاعلْ فاعلْ فعِلن فعِلن »، الذي يناسب إيقاع طبول الميدان وإيقاع خطو الراقص جميعا معا، في حين اختار حجازي بحر الرجز، وهو وزن شعبي غلب على الشعر الحر آنئذ، على أنه مناسب كذلك للعب اللاعب: «مستفعلن مستعلن متفعلن متعلن »، على أية هيئة كانت حركته.

ثم إن الشيباني قسم قصيدته إلى خمسة مقاطع على وفق حروف كلمة « ميدان » الخمسة، ثم بدأها غالبا «بيم بم » التي تمثل صوت الطبول. ومن الطريف جدا أن يتضمن مقطع الألف انفساح أمد ما بين خطوتي الراقص العجوز فانقطاعه، ثم أن يتضمن مقطع النون نواح النهاية !

أما حجازي فقد قسم قصيدته أولا بعبارة السؤال عن زمان الخطأ:

« في أي ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ »

إلى عدة مقاطع، ثم ترك العبارة فاختلطت الأبيات وتداخلت المقاطع.

ثم إن تعلق الشيباني في رسالته بمعاناة راقص الميدان، أفضى به إلى اصطناع صراع الراقص للجماد المشخص الذي يطرح عليه من خوالج نفسه، كالأرض والريح، في حين أن تعلق حجازي في رسالته بالمفارقة التي تحيط بلاعب « السيرك »، أفضى به إلى اصطناع صراع اللاعب للناس، فأما تربص الخطأ به فلا مدخل له إلى الصراع لأنه لم يكن يعبأ به.

# بَحْرُ المُحْمولِ

كنت قبل شراء هاتفي المحمول، في مَنْدوحَةٍ وبُحْبوحَةٍ !

أغيب أغيب أغيب، ثم أحضر فجأة؛ فلا يكون أحسن في الغياب من غيابي، ولا أحسن في الحضور من حضوري !

ثم ماذا؟

ثم لم أجد محيصا ولا مناصا من أن أستعمله، فاشتريت جهاز نوكيا ٦٥١٠ ـ هكـذا هـو فيما أظن ! ـ الذي يسمونه « العصفورة »، ولو سموه « الغراب »، كان أشبه، إلا إذا كانوا لمحوا في تسميتهم معنى التَّجَسُّس والتَّحَسُّس الواضـحين في عبـارة المصريـين كلـما عرفـوا أمـرا خفيـا « العَصْفورا قالِتْ لي »، أو إلا إذا كانوا أشاروا إلى الباب الصحفي الساخر الشهير « العُصْـفورَة »، الذي أظن أننا كنا نَتَفَقَّدُه قديما أول ما نتفقد من صحيفة الوفد المصرية !

علم ذلك أحـد أسـتاذتي العلـماء الفنـانين؛ فكتـب لي هـذه الرسـالة باللهجـة المصريـة الساخرة، في أول ما كتب الناس لي:

« مَبْروكِ المُحْمولْ

عُقْبالِ المُحْمولْ فيهْ » !

هكذا من دون تشكيل، بلا ريب ـ وإنْ دَقَّقْتُ بـه تَشْـجيلها ـ فاسـتثارني تَـوًّا إلى هـذه الرسالة باللغة العربية:

« وَإِذا كانَتِ النُّفوسُ كِبارًا أَتْعَبَتْ في مُرادِها المُحْمولا » !

التي سرقتُها من قول سيدنا أبي الطيب ـ وما أكثر السارقين منه ! ـ:

« وَإِذا كانَتِ النُّفوسُ كِبارًا تَعِبَتْ في مُرادِها الأَجْسامُ » !

فلسفة بفلسفة، والبادئ أظلم !

ثم ضرب الدهر ضَرَبانَه، حتى سهرنا معا أنا وبعض أساتذي وأصدقائي، في كرامة أستاذي ذلك العالم الفنان نفسه؛ فكان بهجةَ المجلس؛ إذ استطرد بحديثه إلى « شِعْرٍ إِخْوانيٍّ بَريديٍّ » حدث بينه وبين بعض أصدقائه؛ فاستطردت إلى « شِعْرٍ إِخْوانيٍّ مَحْموليٍّ » حدث بيني وبين بعض أصدقائي، من مثل رسالة بعضهم:

« طَفِئَتْ آدابُنا وَانْدَرَسَتْ غَيْرَ ما خَلَّفَ مَحْمودُ بْنُ شاكِرْ » !

التي جاملني فيها بالثناء على أبي فِهْرٍ محمود محمد شاكر - رحمه الله ! - أستاذي.

ورسالتي في جوابه:

« كَيْفَ وَالْعَبْسِيُّ يَزْدادُ عَلى ما دَهاهُ الدَّهْرُ نورًا وَنَوادِرْ » !

التي جاملته فيها بالثناء على أبي مسلم البهلاني - رحمه الله ! - أستاذ أساتذته.

وبينت وَجْهَ شَبَهِ تلك المراسلات بفنون المساجلة والمماتنة والإجازة، القديمة التي كان العربيان يتطارحان فيها النظم، قولا بقول، وأنه لمّا زادني صديقي هذا بيتا آخر، وكنت في عمل لازم، لم أستطع إلا أن أقول له في رسالة أخيرة رَجَمَني بَعْدَها:

« أَعْجَزَتْني عَنْ إِجازاتِ الْأَكابِرْ      خَطَراتُ الْعِلْمِ في وَهْمِ الْأَصاغِرْ » !

ثم استطردت ثانيا إلى رسالة أردت أن أعتذر بها عن تقصيري في حق بعض أصدقائي؛ فلم يتيسر لي غير قول الشاعر المصري عبد الوهاب محمد، باللهجة المصرية:

« يا سيدي مَسِّ عَلينا

أَوْ حَتّى صَبَّحْ بِكِلْمَهْ

يِعِزّْ زَعَلَكْ عَلينا

وِتِصْبَحِ الدُّنْيا ضَلْمَهْ » !

فقال بعض أصدقاء المجلس نفسه: لكن هذا من أغنية « لطيفة » !

فقلت: هذا لأنني أنا ولطيفة طلعنا معا !

فضحكوا كثيرا.

ثم استطردت ثالثا إلى رسائل التهنئة المحمولية، بمقدم شهر رمضان الكريم هذه السنة ١٤٢٦، التي كانت تصلني ساذجة، كأن مرسليها مضطرون إليها خشيةَ الإهمال - كيف فكرت في جوابها، فاستحسنت من تَشحيرَةٍ باللهجة المصرية للشاعر فؤاد حداد، قوله:

« دي لَيالي سِمْحَه

نُجومْها سِبْحه

اِصْحَ يا نايِمْ

يا نايِمِ اصْحَ

وَحِّدِ الرَّزاقْ

رَمَضانْ كَريمْ » !

فأحيتْ ذكرى رمضان الموغلة في نفوس المصريين، وأثرت فيهم وفي غيرهم تأثيرا كبيرا، حتى راسلوني - ثم قابلوني - بالثناء عليها ! ولكنها عرضتني لظن بعضٍ غير المصريين، أنني أنبهه بـ« اصْحَ يا نايِمْ يا نايِمِ اصْحَ » على شيء؛ فرتَّبَ لي أمسية، ثم دعاني إليها دعوة رسمية؛ لعلي أرضى !

ثم استطردت رابعا إلى رسائل التهنئة بعيد الفطر، المحمولية الاضطرارية الساذجة كذلك، كيف عَزَفْتُ عن مجاراتها إلى تدبيج هذه الرسالة الشعرية العربية:

« عيدٌ سَعيدٌ أَنْتَ لي

فَلْتَعُدْ

بِالْعادَةِ الْغالِيَةِ الْوافِيَهْ

بِزَهَراتِ الْعَفْوِ وَالْعافِيَهْ » !

ثم أقبلت أشرح كيف أعاني إحكام الرسائل العربية في مساحة سبعين حرفا فقط، لا تَبْتُني « العصفورة » غيرها، وأنني أخرجت هذه الرسالة الأخيرة مثلا من بحر السريع، ثم لما

ضاقت المساحة حذفت من حق الشعر العربي العمودي شطر البيت الآخر، ولا ريب في أنني لم أجد مكانا لاسمي؛ فلم يكن يعبأ بمعاناتي تلك، غير من يعرف رقم المرسل !

فقال بعض أصدقاء المجلس:

غَيِّرْ مَحْمولَك، وهات جهازا متطورا يُتيحُ لك مساحة وافية !

من باب « يا أخي أرِحْنا » !

ولكنني لم أنتبه، بل رأيت المجلس فرصة علمية مناسبة لطرح نظرية « شِعْرِ المَحْمولِ »، العبارة التي سمعتها من بعض ممثلي مسلسل كويتي؛ فلم أنسها !

ربما كتبها كاتب المسلسل عرضا، ولكنه انتبه بلا ريب، إلى نوع معاصر من الشعر ينبغي أن يؤصل ويفصل، كما أُصِّلَتْ تَوْقيعاتُ القُدَماءِ، وَفُصِّلَتْ !

أَكْثَرْتُ مرة أخرى حتى أَهْجَرْتُ؛ فاعتدل أستاذي العالم الفنان، ثم تأنّى حتى يستطيع أن يحفظ كلامَه من شاء، ثم قال:

أَنْتَ رَجُلٌ عَروضيٌّ؛ فَاجْعَلْ هذا الشِّعْرَ الَّذي عانَيْتَه، مِنْ بَحْرٍ تُسَمّيه « بَحْرَ المَحْمولِ »، ثم سَجِّلْهُ بِاسْمِكَ !

ولكنني لم أنتبه؛ فكتبت هذا المقال، أُرَوِّجُ لِبَحْرِيَ الجَديد، مُسْتَعِدًّا لِتَوْصيلِ الشِّعْرِ مِنْهُ إلى المَنازِلِ !

# رِثاءُ الْفَقيهِ الفارِسِ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجاءِ

## رَأْيٌ في دالِيَّةِ الشَّقْصِيِّ

### رِسالةُ الْقَصيدَةِ

* أيُّ خَطْبٍ تُرى ذلك الذي شغل الفقيه الفارس عن فِقْهِهِ وعن فُروسيَّتِهِ !

أيُّ مَوْقِفٍ تُرى ذلك الذي وقفه بين نار الخوف وبرد الرجاء، خميسُ بْنُ سَعيدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مَسْعودٍ الشَّقْصِيُّ الرُّسْتاقِيُّ الْعُمانِيُّ المولودُ في آخر القرن العاشر الهجري، القائمُ في القرن الحادي عشر على دولة اليَعارِبة، بروحه وجسمه !

أيُّ هَمٍّ حَزَبَهُ حتى صَدَرَهُ، وأَفْحَمَهُ حتى نطق الشعر !

### وَطْأَةُ الخَطْبِ

إلى اللهِ مِنْ خَطْبٍ عَلى النَّاسِ قَدْ غَدا فَأَصْمى قُلوبًا غافِلاتٍ وَأَكْبَدا
وَرَوَّعَ أَهْلَ الأَمْنِ في مُسْتَقَرِّهِمْ وَعَمَّ جَميعَ الحاضِرينَ وَمَنْ بَدا
وَضَجَّتْ لَهُ السَّبْعُ الطِّباقُ وَأَرْجَفَتْ لَهُ الأَرْضُ وَالأَلْبابُ طاشَتْ تَبَلُّدا
عَظيمٌ عَلَيْنا وَقْعُهُ وَحُلولُهُ وَفاةُ أَميرِ الْمُسْلِمينَ ابْنِ مُرْشِدا

[ البوسعيدي (السيد حمد بن سيف بن محمد): « قلائد الجمان في أسماء بعض شعراء عمان »، نشرة مسقط، سنة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م، ص ٨٤ ــ ٨٦. وقد وقعت بالقصيدة أخطاء كثيرة جلية وخفية صححتُها، تكشفها موازنة ما هنا بما هناك.

لقد مات بين يديه رَبيبُه الإمام الجليل ناصِرُ بْنُ مُرْشِدٍ الْيَعْرُبِيُّ، الذي نشأ على عينه، وأَمَّ المسلمين بيده؛ فدرأ الله به الفتنة، وعَصَمَهم من الذِّلة، وجعله عند حسن ظنه وظنهم.

[ الحارثي (سالم بن حمد بن سليمان): « تحقيق (منهاج الطالبين وبلاغ الراغبين) »، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة، نشرة وزارة التراث القومي والثقافة العمانية، ٦ ــ ٨،

والعجيلي (قائم محمد رميض): « قيام حكم دولة اليعاربة وانهياره في عمان ١٦٢٤م - ١٧٤٩م: دراسة في التاريخ السياسي »، طبعة ١٩٨٧ م، ٥٩ ].

لقد فدحته وطأة الخطب، حتى لقد حار كيف يسمي (فِعْلَ) اتجاهه « إلى الله »: (ألجأ) أم (أبرأ)، أم غيرَهما؛ فأسرَّه في نفسه إشفاقا على المسلمين، ولم يُبْدِهِ لهم رائيًا أنهم وإياه، كانوا غافلين عن نعمة الله بالإمام عليهم وهو بينهم.

ولسعته نار الخوف، حتى لقد رأى طبائع الأشياء (الناس والكون) تكاد تختل وتتحول عما خلقها الله وعهدها هو عليه؛ فأحس لخطر الفتنة مثلما تكون أوائل العقاب بالتدمير.

أيُّ إمام ذلك الذي لم يكن هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ، ولكنه بُنيانُ الأشياءِ (الناسِ والكونِ)، قد تهدَّم !

### تأْبِينُ الْفَقيدِ

إِمامُ هُدًى قَدْ كانَ فينا مُبارَكًا وَكانَ بِتَوْفيقِ الْإِلهِ مُسَدَّدا

وَقَدْ كانَ لِلدُّنْيا وَلِلدّينِ قَيِّمًا وَلِلسّائِلِ الْعافي مَعاشًا وَمَوْرِدا

يَسوسُ رَعاياهُ بِأَحْسَنِ سيرَةٍ فَحاطَهُمُ ذَبًّا وَعَمَّهُمُ نَدى

وَفَرَّقَ أَهْلَ الظُّلْمِ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ وَشَمَّرَ عَنْ ساقٍ لَهُمْ وَتَجَرَّدا

وَأَظْهَرَ سُبْلَ الْحَقِّ بَعْدَ طُموسِهِ وَأَعْلى مَنارَ الدّينِ عَدْلًا وَشَيَّدا

تَبَدَّتْ لَهُ الدُّنْيا بِحُسْنِ جَمالِها فَغَضَّ وَأَثْنى الطَّرْفَ عَنْها تَزَهُّدا

قَضى نَحْبَهُ والْمُسْلِمونَ جَميعُهُمْ مُوالونَهُ في الله دينًا وَمَعْهَدا

إنه الإمام العادل الذي يُعَجِّل الله له في الدنيا طَرَفًا من ظِلِّه الذي يُظِلُّه به يوم لا ظل إلا ظله؛ فَيَتَفَيَّؤُه المسلمون.

لقد مَلَّكَهُ عليهم أولا زُهدُه في متاع الدنيا، وغناه عما في أيديهم؛ فأقروا له بالإمامة، ومَلَّكَه عليهم آخِرًا حِكْمَتُهُ التي جمع فيها الترغيب والترهيب، والمنح والمنع؛ فأقروا له بالعدل.

ولما أقروا له عن رضا واختيار، لا عن خوف واضطرار، اقتحم بهم بَيْهاءَ المهالك المُدْلَهِمَّة؛ فانتزع الحق من براثن الباطل، وكَبَتَ الظلم بآية الإنصاف.

* كيف للزمان أن يجود بفضله، وللمكان أن يتسع لمثله !

## لَوْعَةُ الفَقْدِ

وَلَمّا رَأَيْتُ الحامِلينَ تَسابَقَتْ إِلى نَعْشِهِ أَيديهِمُ قُمْتُ مُنْجِدا

بَكَيْتُ وَأَبْكَيْتُ الضَّراغِمَ حَوْلَهُ وَأَيْقَنْتُ أَنْ لا وَصْلَ يُرْجى وَمَوْعِدا

كَما جَلَّ فينا قَدْرُهُ عَزَّ فَقْدُهُ فَأَكْرِمْ بِهِ حَيًّا وَمَيْتًا وَمُلْحَدا

سَلامٌ عَلى الدُّنْيا إِذا لَمْ يَكُنْ بِها فَتى مُرْشِدٍ ما بَيْنَنا مُتَمَهِّدا

حَباهُ إِلهُ العَرْشِ رَوْحًا وَراحَةً وَمُلْكًا كَبيرًا لَمْ يَبِدْ وَيَنْفَدا

يالَلْمُبْتَلى !

أيُّ ثأر للموت عنده حتى يفجعه بربيبه وتلميذه وإمامه ! كأنه لما بكى لانتحابه المسلمون، أيقن أنها الحقيقةُ الواقعة المؤلمة: انقطاعُ حبل الدنيا بينهما، ومَرَّ في فمه طعمُ الحياة؛ فكرِه أن يحفظ لها نفسه !

أيَّةُ قيمة للدنيا، وقد رحل عنها خاليا مِنْها، مَنْ مَلَكَ الشرق والغرب !

* ولكن ملكه العريض باقٍ بعده لم يرحل معه؛ فهل من يقوم عليه كما كان يقوم، ويحفظه فيه بكرامة ما بَذَلَ له؟

## بُشْرى الخَلَفِ

وَلَوْلا فَتى سَيْفٍ وَتَجْريدُ عَزْمِهِ لَأَمْسى جَمالُ الدّينِ مِنْهُ مُجَرَّدا

تَدارَكَ سَجْلَ المُلْكِ قَبْلَ انْكِفائِهِ وَقَدْ شارَفَتْ حيطانُهُ أَنْ تَبَدَّدا

وَمَرَّ عَلى نَهْجِ الخَليفَةِ ناصِرٍ وَأَوْرى زِنادَ الحَقِّ حَتّى تَمَهَّدا

دَعَوْتُ لَهُ الرَّحْمنَ نَصْرًا وَعِصْمَةً وَفَتْحًا مُبينًا لا يَزالُ مُؤَيَّدا

لَقَدْ وَقَفوا في مَوْقِفٍ يَعْلَمونَهُ يَقينًا بِأَنَّ المَوْتَ فيهِ تَرَصَّدا
فَلا ذَكَروا الدُّنيا وَلا عَبِثوا بِها وَلا جَزِعوا لِلْمَوْتِ حينَ تَعَمَّدا
فَلا فَخْرَ إِلّا وَهْوَ دونَ فَخارِهِمْ وَجودُ الْفَتى بِالنَّفْسِ أَعْلى تَمَجُّدا
فَمَنْ كانَ مُشْتاقًا إِلى اللهِ صادِقًا كَذا فَلْيَكُنْ ذا أُهْبَةٍ مُتَزَوِّدا

لقد خلفه على إمامة المسلمين سُلْطانُ بْنُ سَيْفٍ الْيَعْرُبِيُّ ابْنُ عَمِّهِ، فلم يكن إلا شِبْلًا من تلك المَأْسَدَةِ؛ فَشَحَذَها لله هِمَّةً عالية، وألقاها بين عينيه، يصون أصول الدين، ويحمي ثغور الملك، راميا بنفسه المهالك، ساخرا بالعوائق؛ فابتنى لنفسه وأهله والمسلمين، مجدا يُعْجِزُ من يصبو إليه إلا أن يَبْذُلَ فيه مِثْلَما بَذَلَ.

* أترى يسلو ذكرى ربيبه وتلميذه وإمامه السالف، أم ترى يقوى فيما بقي من حياته، على نصرة إمامه الخالف؟

## سَلْوى الزِّيارَةِ

أَيا صاحِبِي دَعْني وَمابي مِنَ الأَسى وَلا تَذْكُرَنْ عِنْدي سَعيدًا فَأُجْهَدا
وَلَمّا رَأَيْتُ الأَمْرَ ضاقَ وَأَزْبَدا تَيَمَّمْتُ بِالْمَدْحِ النَّبِيَّ مُحَمَّدا
نَبِيٌّ بَراهُ اللهُ أَفْضَلَ مَنْ مَشى وَمَنْ رَكِبَ الْعيسَ الرَّواسِمَ أَوْ غَدا
وَخيرَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَصَفِيَّهُ وَأَفْضَلَ مَنْ صَلّى وَصامَ وَأَهْجَدا
وَإِنّي لَمُشْتاقٌ إِلى أَرْضِ يَثْرِبٍ وَشَمِّ ضَريحٍ صارَ فيهِ مُلَحَّدا
لِيَشْفِيَ داءَ الشَّوْقَ مِنْ نَفَحاتِهِ وَيَثْلِجَ قَلْبًا كانَ بِالشَّوْقِ مُغْمَدا
وَنَرْكَعَ في تِلْكَ الْمَقاماتِ ما قَضى لَنا مِنْ صَلاةِ الْمُخْلَصينَ تَعَبُّدا
نُسَلِّمُ تَسْليمَ الْمُحِبّينَ بَعْدَما نُصَلّي عَلَيْهِ ثُمَّ نُثْني تَحَمُّدا
وَنُثْني عَلَى الصِّدّيقِ ذي الْعَدْلِ وَالتُّقى وَصاحِبِهِ الْفاروقِ ذي الْبَأْسِ وَالنَّدى
وَأَصْحابِهِ وَالآلِ طُرًّا يَعُمُّهُمْ سَلامِيَ ما ناحَ الْحَمامُ وَغَرَّدا

كل إمام عادل غائب ـ مهما افتقده ـ فالرسول ـ صلى الله عليه، وسلم ! ـ أعز منه لديه فقْدا وأغلى؛ فلا ريب أن يتعلق بزيارته. وكل عَضُدٍ شديدٍ ـ مهما فُقِدَ ـ فالصحابة أئمة الهدى ـ رضوان الله عليهم ! ـ أعز منه فقْدا وأغلى؛ فلا ريب أن يتعلق بزيارتهم.

إنه إذا وفى لإمام، فإنما له ـ صلى الله عليه، وسلم ! ـ يفي، وإذا نصره، فإنما إليهم ـ رضوان الله عليهم ! ـ يطمح.

* أفَتُرى يشفع له عند ربه ـ سبحانه، وتعالى ! ـ إخلاصُه؟

## أَمَلُ الشَّفاعَةِ

أَلا يا رَسولَ اللهِ يا خَيْرَ شافِعٍ وَداعٍ إِلى الرَّحْمنِ أَوْصى وَأَشْهَدا

فَكُنْ شافِعي للهِ فيما عَمِلْتُهُ بِعَمْدٍ وَنِسْيانٍ أَتى وَتَعَمُّدا

وَإِنّي إِلَيْهِ تائِبٌ مُتَضَرِّعٌ لِيَغْفِرَ ذَنْبًا كانَ مِنّي عَلى اعْتِدا

وَإِنّي لأَرْجو اللهَ أَخْشى عَذابَهُ وَأَرْجو رَسولَ اللهِ لي شافِعًا غَدا

وَإِنْ سَلَفَتْ مِنّي وَساءَتْ خَليقَةٌ فَقَدْ كانَ عَفْوُ اللهِ أَعْلى وَأَمْجَدا

وَإِنْ شاءَ تَعْذيبي فَعَدْلٌ قَضاؤُهُ بِفِعْلي وَإِنْ يَرْحَمْ فَفَضْلًا تَعَوَّدا

فَكَمْ نِعْمَةٍ أَسْدى وَكَمْ فِتْنَةٍ وَقى وَكَمْ مِحْنَةٍ عافى وَمِنْ ظُلْمَةٍ هَدى

وَلَوْ نَطَقَتْ مِنّي الجَوارِحُ كُلُّها بِشُكْرٍ لَما أَحْصَتْهُ دهْري تَعَدُّدا

ها هو ذا يموت خوفا ويحيا رجاء، ويستشفع الرسول ـ صلى الله عليه، وسلم ! ـ بإقراره بتبليغه الرسالة وأدائه الأمانة، ويسترحم ربه ـ سبحانه، وتعالى ! ـ بإقراره بأنه خطّاء خوّاف، وبأنه لو عاش يحسن لا يسيء، لعجز عن وفاء إحدى نعمه التي لا يعلم عددها إلا هو، وبأنه ـ سبحانه، وتعالى ! ـ الغفار الذي عوده كرمه؛ فلا يقطع عادته.

* لقد اجتمع الخوفُ والرجاءُ في القصيدة عامَّةً، وفي كل قسم من أقسامها خاصَّةً:

**إنه إذا انتمت للخوف « وطأة الخطب »، و « تأبين الفقيد » و « لوعة الفقد » ـ انتمت للرجاء « بشرى الخلف »، و« سلوى الزيارة »، و « أمل الشفاعة ».**

**وإذا اشتدَّ الخوف « بوطأة الخطب »، خفَّفه رجاء الله والانتباه من الغفلة، أو « بتأبين الفقيد »، خفَّفه رجاء موالاة المسلمين جميعهم، أو « بلوعة الفقد »، خفَّفه رجاء بقاء نعمة الله.**

**وإذا اشتد الرجاء « ببشرى الخلف »، خفَّفه خوف ترصد الموت وضياع الهمم، أو « بسلوى الزيارة »، خفَّفه خوف ضيق الأمر، أو « بأمل الشفاعة »، خفَّفه خوف المحاسبة بالعدل.**

**هكذا يجتمع الخوف والرجاء في قصيدة الفقيه الفارس، ويختلطان، ويَخْتَلِجان. ولو لم تُدْرِكِ الفقهَ الفروسيةُ، لانفرد بها الخوف، أو لم يُدرك الفروسيةَ الفقهُ، لانفرد بها الرجاء.**

*** ولقد بَذَلَ الشقصي « لوطأة الخطب » أربعة أبيات، و« لتأبين الفقيد » سبعة، و«للوعة الفقد» خمسة، و«لبشرى الخلف» ثمانية، و«لسلوى الزيارة» عشرة، و«لأمل الشفاعة» ثمانية؛ فأوحى بزيادة ما بَذَلَ «لسلوى الزيارة»، من أبيات، على ما بَذَلَ لغيرها من مقاطع قصيدته، بما صار معلوما من آراء فقهاء المسلمين بالضرورة: أنه لن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أمر أولها.**

## وَسائِلُ الْقَصيدَةِ

* أخرج الشَّقْصيُّ قصيدته من بَحْرِ الطَّويلِ الْوافي الْمَقْبوضِ الْعَروضِ والْضَّرْبِ:

| إِلى اللّـ | ـهِ مِنْ خَطْبٍ | عَلى النّا | سِ قَدْ غَدا | فَأَصْمى | قُلوبًا غا | ـفِلاتٍ | وَأَكْبَدا |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| فعولن | مفاعيلن | فعولن | مفاعلن | فعولن | مفاعيلن | فعولن | مفاعلن |
| سالمة | سالمة | سالمة | مقبوضة | سالمة | سالمة | سالمة | مقبوضة |

وقافيةِ الْمُطْلَقَةِ الْمُجَرَّدَةِ الدّاليَّةِ الْمَوْصولَةِ بِالْأَلِفِ:

أَكْ بَ دا

أما الطويل ـ ولا سيما صورته هذه ـ فأشيع بحور الشعر العربي القديم استعمالا، حتى لقد مَلَّكَهُ عليها بذلك سَيِّدُنا أبو الْعَلاءِ الْمَعَرّيُّ، على منهجه في استيعاب علوم العربية وآدابها

وعلوم الإسلام وآدابه والامتزاج ومَزْج الدنيا بها. وإنما كان أشيعها، بمناسبته أكثرَ منها، للموسيقى (الغناء) القديمة الغالبة على الأسماع، حتى لم يكن لشاعر أن يغفل عنها.

وأما هذه القافية - ولاسيما الدالية وقليلٌ غيرُها معها - فأشيع قوافي الشعر العربي القديم، استعمالا. وإنما كانت كذلك، بمناسبتها لطريقة الوقف، ولمادة متن اللغة من الكلمات.

لقد لان الشقصي لفقهه للشعر العربي القديم الذي لا يستغني عنه فقهه لعلوم الإسلام وآدابه؛ فقاده إلى ذلك كله، ولم يكن للبادئ أو المُقِلّ متى كان صادقا، إلا أن يلين في يد ما طرأ عليه.

ومن فقهه نفسِه، تَقْفِيَتُهُ للبيتين الأول، والسادس والعشرين:

١... قَدْ غَدا... أَكْبَدا

٢٦... أَزْبَدا... حَمَّدا

إذ قد علم أن الداخل إلى قصيدة الشعر العربي القديم، من غير تقفية مَطْلَعِها - وقَريبٌ منها تَصْريعُهُ - كالمُتَسَوِّرِ الداخل من غَيْرِ بابٍ، وأن تكرار ذلك قبيح إلا أن يبدأ معنى جليلا يريد أن ينبه عليه وكأنه يبدأ قصيدة جديدة، ولم يكن لديه أجَلُّ من استشفاع الرسول الكريم، صلى الله عليه، وسلم ! ذلك أحْرى بمن يتحرّى القَبول ويُلْحِفُ في الطلب.

* وعلى رغم تأخر زمان الشقصي واشتغاله بالفقه، غَلَبَتِ على لغته الجَزالةُ !

أجل، لقد اشتهر الفقهاء والمتأخرون جميعا، بركاكة الشعر؛ فأما أولئك فلجفاف أحكام القضاء الذي يطبعهم بطابعه فلا ينفكون منه، وأما هؤلاء فلعموم ضعف اللغة العربية في زمانهم بضعف أهلها. وأما الشقصي فقد أدركه فقهه للشعر العربي القديم مرة أخرى؛ فلا ريب في علمه بمنزلة إحكام اللغة منه، ثم أدركته مخالفة حال المتأخرين العمانيين لحال غيرهم من العرب، على ما هو معروف.

تتحدر تراكيب لغة القصيدة قديمةً معهودةً، من شاء وجدها في أية قصيدة قديمة، أتى بها إلى الشقصي بحرُ الطويل الذي لم ينفد على كثرة المُغترفين؛ فمِنْ عَطْفِ تركيبٍ يملأ عجز

البيت على شَبيهٍ يملأ صدره، كما في الأبيات: الثاني، والثامن، والتاسع، والعاشر، والثالث عشر، وغيرها:

وَرَوَّعَ أَهْلَ الْأَمْنِ في مُسْتَقَرِّهِمْ       وَعَمَّ جَميعَ الحاضِرينَ وَمَنْ بَدا

فها هو ذا قد عطف جملة خبرية فعلية ماضوية (ماض، فيه فاعل مستتر، ومفعول به اسم ظاهر، مضاف إلى اسم ظاهر، ومعطوف اسم موصول، بعده صلة جملة فعلية ماضوية: ماض، فيه فاعل مستتر) ــ شَغَلَتْ عَجُزَ البيت، على جملة خبرية فعلية ماضوية (ماض، فيه فاعل مستتر، ومفعول به اسم ظاهر، مضاف إلى اسم ظاهر، وحال شبه جملة: جار، ومجرور اسم ظاهر، مضاف إلى ضمير غيبة) ــ شَغَلَتْ صَدْرَهُ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، كما تقول العرب !

ـ إلى تَعْليق جَوابٍ يملأ العجز بشرط يملأ الصدر، كما في الأبيات: الثاني عشر، والسابع عشر، والرابع والعشرين، والسادسِ والعشرين، والتاسعِ والثلاثين، والأربعين، والثاني والأربعين الأخير:

وَإِنْ سَلَفَتْ مِنّي وَساءَتْ خَليقَةٌ       فَقَدْ كانَ عَفْوُ اللهِ أَعْلى وَأَمْجَدا

فها هو ذا قد أجاب بجملة اسمية منسوخة بفعلٍ، شَغَلَتْ عَجُزَ البيت، شَرْطَهُ بجملة فعلية معطوفٍ عليها مِثْلُها، شَغَلَتْ صَدْرَ البيت.

إلى قطع مسيرة تركيب، واستئناف تركيب نعت يتصدر فيه البيتَ منعوتٌ تليه نُعوتٌ مُتعاطفةٌ تملأ شَطْرَيِ البيت، كما في البيتين الخامس، والسابع والعشرين:

إِمامُ هُدًى قَدْ كانَ فينا مُبارَكًا       وَكانَ بِتَوْفيقِ الْإِلهِ مُسَدَّدا

فهاهو ذا قد صَدَّرَ اسما ظاهرا خبرَ مبتدإٍ محذوفٍ، مضافًا إلى اسم ظاهر، وشغل بقيةَ صدرِ البيت بنعتٍ جملةٍ اسمية منسوخةٍ بفعل، والعَجُزَ بنعتٍ آخر مِثْلِهِ معطوفٍ جملةٍ اسمية منسوخةٍ بفعل، حَذْوَ القُذَّةِ بِالْقُذَّةِ كذلك !

إلى تقسيم البيت بحيث تُطابقُ أقسامُ التَّراكيبِ أقسامَ الوزن، كما في قوله:

فَكَمْ نِعْمَةٍ أَسْدى وَكَمْ فِتْنَةٍ وَقى وَكَمْ مِحْنَةٍ عافى وَمِنْ ظُلْمَةٍ هَدى

فها هو ذا قد أخرج أقسامَ بيت الطويل المُمْتَزِجِ (المتكررة فيه تفعيلتان مختلفتان) المثمن (ذي الثماني التفاعيل)، الأربعةَ ـ من أقسام أربعةٍ من تكرار تركيب الجملة الفعلية المتقدمِ على فعلها مُتَعَلَّقُهُ:

فَكَمْ نِعْمَةٍ أَسْدى = فعولن مفاعيلن

وَكَمْ فِتْنَةٍ وَقى = فعولن مفاعلن

وَكَمْ مِحْنَةٍ عافى = فعولن مفاعيلن

وَمِنْ ظُلْمَةٍ هَدى = فعولن مفاعلن

وقد خَفَّفَ من صَنْعَتِهِ فيه، عَدَمُ تمسكه بسجع أواخرها ـ وإن ختمتها جميعا الألف المقصورة الأصلية؛ فليست بصوت سجعٍ قوي ـ ولا « بكَمْ » في القسم الأخير.

ولا غريبَ في القصيدة عن لغة زماننا، يعوق الجزالة، غيرُ كلمة « الرَّوَاسِم » أي الإِبِلِ الْعادِيَة، وهي على رغم احتمال ألا تكون غريبة عن لغة زمانه، لطيفةُ الوَقْع ملتبسة لدينا بجمع « راسمة » القريب منا.

ولا حشو لإكمال عروض القصيدة يفسد الجزالة، إلا « حُلولُه » في البيت الرابع، و«مُلْحَدا» في البيت الرابع عشر، و« أَنْى » في البيت العاشر، و« يَنْفَدا » في البيت السادس عشر، و« تَعَبُّدا » في البيت الحادي والثلاثين، و« تَحَمُّدا » في البيت الثاني والثلاثين، و«تَعَمُّدا» في البيت السادس والثلاثين، وأكثرها من كلمات القافية العامة البلوى في الشعر العربي العمودي!

ولا ضَرائرَ تُغَيِّرُ اللغةَ لِتُسَلِّمَ عَروض القصيدة، إلا منعُ صرف « مُرْشِدا » في البيت الرابع، وزيادة همزة « أَنّى » في البيت العاشر، وإثبات نون المضاف « مُوالون » في البيت الحادي عشر، وكلٌّ منها قليلة غير شائعة ـ وحذف فاء جواب الشرط من « كَذا » في البيت الرابع والعشرين، وهي كثيرة شائعة.

# مَنْ لَكَ بِذُنابَةِ «لَوْ»!

*مَنْ لَكَ بِذُنابَةِ «لَوْ»، أي مَنْ لَكَ بِأَنْ يَكونَ «لَوْ» حَقًّا. وَقالَ ـ أي الشّاعِرُ ـ:*

*تَعَلَّقْتُ مِنْ أَذْنابِ لَوْ بِلَيْتَني وَلَيْتُ كَلَوْ خَيْبَةٌ لَيسَ تَنْفَعُ!* *أبو الفَضْلِ المَيْدانيُّ*

كانَ يا ما كانَ!

زَعَموا أَنَّه كانَتْ في اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ ماضَوِيَّةٌ قَصيرَةٌ صَغيرَةٌ غَريرَةٌ، سامَ فيها مُؤَسِّسانِ زَوْجانِ: فِعْلٌ هو «صَحَّ»، وَفاعِلٌ هُوَ «الْعَزْمُ» ـ انْقَطَعَ كُلٌّ مِنْهُما لِصاحِبِه، وَاعْتَمَدَ في مَعيشَتِهِ عَلَيْهِ، وَنَظَرَ إلى دُنْياهُ بِعَيْنِه؛ فَلَمْ يَكونا يَرَيانِ في أَيٍّ مِنَ الْمُكَمِّلاتِ (الْمُتَعَلِّقاتِ)، ما يَزيدُ مَعْنَيَيْهِما، وَلا في أَيٍّ مِنَ الْمُلَوِّناتِ (الأَدَواتِ)، ما يُوَجِّهُ فِكْرَتَهُما!

قالوا: فَبَقِيا عَلى ذلِكَ ما شاءَ اللهُ ـ سُبْحانَه، وَتَعالى! ـ حَتّى وَجَدَتِ الْجُمَلُ عَلَيْهِما، ثُمَّ نَفَرَتْ مِنْهُما، ثُمَّ اسْتَغْنَتْ عَنْهُما؛ فَمَنَعَتْ جُمْلَتَهُما تِلْكَ الْفِعْلِيَّةَ الْماضَوِيَّةَ الْقَصيرَةَ الصَّغيرَةَ الْغَريرَةَ، أَنْ تُشارِكَ في خَلِيَّةِ أَيَّةِ فِقْرَةٍ، أَوْ أَنْ تَنْفَرِدَ في جِسْمِ أَيِّ نَصٍّ، حَتّى جَفَّتْ، وَذَوَتْ، وَضاقَتْ عَلَيْهِما الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ؛ فَخَرَجَ مُؤَسِّساها الْفِعْلُ وَالْفاعِلُ كِلاهُما، مُهاجِرَيْنِ إلى أَرْضِ اللُّغَةِ الْواسِعَةِ!

قالوا: فَلَمْ يَكَدِ النُّضوبُ يُمَصِّصُهُما، وَلا الذُّوِيُّ يُلَوِّحُهُما، حَتّى انْتَهَيا مِنَ اللُّغَةِ إلى عَيْنِ فِقْرَةٍ نَميرَةٍ، في بُسْتانِ نَصٍّ نَضيرٍ؛ فَلَمْ يَكادا يَعُبّانِ فيها، حَتّى انْجَذَبا مِنْ قَفَوَيْهِما، فَإِذا شَعْبٌ مُجْتَمِعٌ عَلَيْهِما سَطْرًا سَطْرًا سَطْرًا، كُلُّ سَطْرٍ صِنْفٌ مِنْ أَدَواتٍ لَمْ تَتَخَلَّلْ يَوْمًا جُمْلَتَهُما، وَلا طَرَأَتْ عَلَيْهِما، وَلا نَجَتْ مِنَ احْتِقارِهِما!

صَرَخَتْ فيهِما مِنَ السَّطْرِ الأَوَّلِ، أَداةُ الإسْتِفْهامِ «ما»:

ما أَنْتُما؟

فَقالا مَعًا:

«صَحَّ الْعَزْمُ».

فَأَغْرَتْها بِهِما مِنَ السَّطْرِ الثّاني، أَداةُ الْجَرِّ «عَلى»، فَصَرَخَتا فيهِما:

عَلامَهْ؟

فَقالا مَعًا:

عَلى غَيْرِ شَيْءٍ!

فَسَخِرَتْ مِنْهُما مِنَ السَّطْرِ الثّالِثِ، أَداةُ الشَّرْطِ «إذا»:

إذا صَحَّتِ الْغايَةُ صَحَّ الْعَزْمُ!

ثُمَّ أَغْرَتْها بِهِما مِنَ السَّطْرِ الثّاني، أَداةُ الْجَرِّ «الْباءُ»؛ فَصَرَخَتا فيهِما:

بِمَهْ؟

فَقالا مَعًا:

بِغَيْرِ شَيْءٍ!

فَسَخِرَتْ مِنْهُما مِنَ السَّطْرِ الثّالِثِ، أَداةُ الشَّرْطِ «إِنْ»:

إِنْ صَحَّتِ الْوَسيلَةُ صَحَّ الْعَزْمُ!

ثُمَّ تَلَعَّبَتْ بِهِما سائِرُ الْأَدَواتِ، كُلٌّ تَكُرُّ بِمعناها عَلَيْهِما، وَتَسُبُّ بِفِقْدانِهِما لَهُ وَجْهَيْهِما، حَتّى كادَتْ تُقَضْقِضُ أَصْواتَهُما، وَلكِنَّهُما تَعَثَّرَتْ أَلْسِنَتُها فَجْأَةً، وَتَصايَحَتِ:

الْعَيْنَ الْعَيْنَ - يا أَخَواتُ - الْعَيْنَ الْعَيْنَ!

فَتَقافَزَتِ الْأَدَواتُ كُلُّها إِلى عَيْنِ فِقْرَتِها، وَتَغاوَصَتْ فيها، حَتّى تَرامَتْ عَلى قاعِها، إِلّا الْجُمْلَةَ الْفِعْلِيَّةَ الْماضَوِيَّةَ الْقَصيرَةَ الصَّغيرَةَ الْغَريرَةَ؛ فَقَدْ سُقِطَ في أَيْدي مُؤَسِّسَيْها كِلَيْهِما، وَأَتَتْ عَلَيْهِما مِنْ وَراءِ النَّصِّ نارُ الْأَدَواتِ الْقَديمَةُ، تَتَسابَقُ كَلاليبُها أَخْبَثَ ما كانَتْ، وَأَجْوَعَ ما تَكونُ، فَاسْتَصْرَخاها مَعًا:

لَوْ لَوْ لَوْ...!

فَلَفَحَتْهُما مَعًا لَفْحَةً واحِدَةً، أَداةُ الشَّرْطِ «لَوْ»:

مَنْ لَكَ بِذُنابَةِ «لَوْ»!

حَتّى إِذا انْخَسَفَ بِهِما بُسْتانُ النَّصِّ، صاحَتْ صَيْحَةً واحِدَةً:

لَوْ صَحَّ الْعَزْمُ لَصَدَقَ الْعَمَلُ!

# قَرابَةُ الْأَدَبِ

[١] قال محمد بن موسى: سمعت عليَّ بن الجَهْمِ، ذكر دِعْبِلًا فكَفَّرَه ولعنه وطعن على أشياء من شعره، وقال: كان يكذب على أبي تمام، ويضع عليه الأخبار، ووالله ما كان مقاربا له. وأخذ في وصف أبي تمام؛ فقال له رجل: لو كان أبو تمام أخاك، ما زاد على مدحك له! فقال: إِلَّا يَكُنْ أَخًا بالنَّسَبِ، فإنه أَخٌ بالأَدَبِ والدِّينِ والمَوَدَّةِ. أما سمعت ما خاطبني به:

إِنْ يُكْدِ مُطَّرَفُ الْإِخاءِ فَإِنَّنا نَغْدو وَنَسْري في إِخاءٍ تالِدِ

أَوْ يَخْتَلِفْ ماءُ الوِصالِ فَماؤُنا عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمامٍ واحِدِ

أَوْ يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّفْ بَيْنَنا أَدَبٌ أَقَمْناهُ مَقامَ الْوالِدِ"

* الصولي: «أخبار أبي تمام»، والتوحيدي: «البصائر والذخائر»، نشرة موقع الوراق الألكتروني.

[٢] ولقد يَسَّرَ لنا تأدُّبُنا على محمود محمد شاكر المُتَأَدِّبِ على مصطفى صادق الرافعي - رحمهما الله! - أن نرى رأْيَ العَيْنِ، كيف يَسْتَمِرُّ الأدب من المؤدِّب إلى المُتَأَدِّب، استمرارَ الدم من الأب إلى الابن، تَعْطِفُ الأولَ على الآخِرِ أُبوَّةُ التَّأْديبِ، وتَعْطِفُ الآخِرَ على الأول بُنوَّةُ التَّأَدُّب، ثم تجمعهم أُخوَّة الأَدَبِ خُيولَ رِهانٍ، تَعْدو مَعًا، وتَظْهَرُ على هذه الحياة الدنيا كَرًّا وَفَرًّا وَإقبالًا وإدْبارًا، مَعًا!

ولئن صار الرافعيُّ تراثا يَتَوارَثُه شاكرٌ كما قال، وحَنانًا يَأْوي إليه، لَبِما صار شاكرٌ مِقْياسَنا الذي نَقيس بِهِ الرجالَ كما قلتُ، يُثني عليه ظاهرنا وباطننا وناطقنا وصامتنا، كلٌّ يزعم أنه أصدق له ودًّا، ولطريقته اتباعا، وعليه ثناء، غير أنه يصير إلى الصمت عجزا"

* صقر (الدكتور محمد جمال): «نجاة من النثر الفني: مقالات ومقامات»، طبعة المدني بالقاهرة، الأولى في ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م، ١٦.

[٣] ولَئِنْ كان عليُّ بْنُ الجَهْمِ كما قالوا، من كَمَلَةِ الرجال، لَبِما يُشْبِهُه محمود محمد شاكر، دون أن يكون كَمالُهُما إلا العَقْلَ، ولا ثَقافَتُهُما إلا الأدبَ.

نَقَلَ البغدادي - عليه وعلى بغداد السلام! -:

«الأدبُ الذي كانت العرب تعرفه، هو ما يَحْسُنُ من الأخلاق وفعل المكارم، مثلُ تركِ السفهِ، وبذلِ المجهودِ، وحسنِ اللقاءِ. قال الغَنَويُّ:

لَمْ يَمْنَعِ النّاسُ مِنّي ما أَرَدتُّ... البيت

كأنه ينكر على نفسه أن يعطيه الناس ولا يعطيهم.

واصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على أن يسموا العالم بالنحو والشعر وعلوم العرب، أديبا. ويسمون هذه العلوم الأدب، وذلك كلام مُوَلَّدٌ، لأن هذه العلوم حدثت في الإسلام. واشتقاقه من شيئين: يجوز أن يكون من الأَدْبِ وهو العَجَبِ، ومن الأَدْبِ مصدر قولك: أدَبَ فُلانٌ القومَ يأدِبُهم أَدْبًا، إذا دعاهم. قال طَرَفَةُ:

نَحْنُ في المَشْتاةِ نَدْعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

فإذا كان من الأَدْبِ الذي هو العَجَب، فكأنه الشيء الذي يُعْجَبُ منه لحسنه، لأن صاحبه الرجل الذي يُعْجَبُ منه لفضله. وإذا كان من الأَدْب الذي هو الدعاء، فكأنه الشيء يدعو الناس إلى المحامد والفضل، فينهاهم عن المقابح والجهل. والفعل منه أَدِبْتُ آدَبُ أدبا من باب فَرِحَ، فأنا أديبٌ. والمُتَأَدِّبُ: الذي قد أخذ من الأدب بحظ، وهو مُتَفَعِّلٌ من الأَدَبِ، يقال منه أَدُبَ الرجل يأْدُبُ إذا صار أديبا، ومثل كرم، إذا صار كريما» *.

* البغدادي (عبد القادر بن عمر): «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»، حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعه المدني الثانية في ١٩٨١م، ونشره الخانجي بالقاهرة، ٩/ ٤٣٢ - ٤٣٣. ولقد أورد البيت من قبل - في ٩/ ٤٣١ - هكذا:

لا يَمْنَعُ النّاسُ مِنّي ما أَرَدتُّ وَلا أُعْطيهِمُ ما أَرادوا حُسْنَ ذا أَدَبا

شاهدا على أن (حُسْنَ) فيه للمدح والتعجب.

لكأنه لما تَأَصَّلَ بالمعنى الحادث، تَأَصَّلَتْ له صيغةٌ مِنْ بابِ الْكَرَمِ الدالِّ على الطبائع الثابتة والسجايا الراسخة.

[٤] من ثَمَّ لم يَكُنْ أَنْقَصَ عَقْلًا، ولا أَسْوَأَ أَدَبًا، مِنْ أن نترجم كلمة «Culture» الإنجليزية، بكلمة «ثقافة» العربية، بحيث لم يُسْتَغْرَبْ كما يقول بعض الباحثين، «إذا ما تَعاظَمَ إنتاجُ الفكر وبدأ غَرْسُ القِيَمِ الجديدة وحَصْدُ ثِمارِ النهضة، أن يطلق الإنسان الأوروبي لفظ «Culture» على هذه العملية. وأما عن دوره تجاه المجتمعات الأخرى فهو مفهوم يعبر عن عملية زرع القيم والأخلاق والمؤسسات الأوروبية، في المجتمعات الأخرى، تمهيدًا لحصاد هذه المجتمعات، سواءٌ عقولٌ مبدعة تهاجر إلى المجتمع الأوربي أو مواردُ اقتصادية تغذي عجلة اقتصاده» *.

* باحث مجهول: «الثقافة في الفكر الغربي»، نشرة موقع إسلام أون لاين الألكتروني.

أين دلالة الكلمة الإنجليزية على ضرورة إخضاع المثقف لغيره وضرورة خضوع غيره له جميعا معا، بما في أصلها اللاتيني من معالم الحَرْث والزرع ـ من دلالة الكلمة العربية على ضرورة تقدير المثقف لنفسه وضرورة تقديره لغيره جميعا معا، بما في أصلها العربي من معالم الفهم والحذق والفطنة والضبط والثبات والذكاء والتهذيب والتقويم والإدراك والظفر.!

* عارف (الدكتور نصر): «الثقافة مفهوم ذاتي متجدد»، نشرة موقع إسلام أون لاين الألكتروني.

[٥] أَيْنَ امْرُؤُ القَيْسِ والعَذارى إذْ مالَ مِنْ تَحْتِهِ الْغَبيطُ
اسْتَنْبَطَ الْعُرْبُ في المَوامي بَعْدَكَ واسْتَعْرَبَ النَّبيطُ

صدق أبو بصير المعري، وإن ألزم نفسه ما لم يكن يلزمها؛ فإنما العروبة استيلاء اللغة العربية على التفكير والكلام، لا على اللحوم والعظام؛ فرُبَّ قرشي عجمي، وعجمي قرشي!

[٦] أيا جارَتا إنّا أديبانِ هاهُنا وَكُلُّ أديبٍ لِلأديبِ نَسيبُ

لكأني بي واقفا على امْرِئِ القَيْسِ مِنْ قَبْلِ أن ينتهى إلى مُخَلِّدِهِ، أُحَـرِّفُ لـه بيتَـه؛ فيعجبُـه التَّحريف، ويُدْهِشُهُ مَجْمَعُ ما بيني وبينه على انفراط الدهور؛ فأُذَكِّرُهُ أَرْبعـةَ الأعـمالِ الكِبـارِ التـي نَظَمَ بها أَدَبَه، أنّني تمسكتُ بها أصـولًا لغويـة تفكيريـة لا أَزيـغُ عنهـا حيـاةً؛ فَدَقَقْتُـهُ في أوردتي؛ فيستنكر الاستطالة عليه؛ فأفصِّلها له وكـأنْ مجـلسي بالجامعـة قـد انعَقَـدَ، مُتَـذَمًّا مـن انعكـاس المقامين:

أولها الإبدال، وفيه يمر بمادة الكلام حتى يختار منها ما يلائمه،

وثانيها الترتيب، وفيه يصرِّف ما اختار حتى يضعه حيث يلائمه،

وثالثها الحذف، وفيه ينقص مما اختار، ما يستغني عنه،

وآخرها الإضافة، وفيه يزيد فيما اختار، ما لا يستغني عنه.

رائده في كل منها العَروض الذي طَرِبَ له أوَّلًا؛ فأقبل يُغَنّيه ومَعازِفُه مفـرداتُ الكـلام العربي المبين.

فيُقْسم بهواه - قاتله الله! - إنْ خطرت له تلك الأعـمال ببـال؛ فأقسـم بـربّي - سـبحانه، وتعالى! - إلا تكن خَطَرَتْ له أسماءً، لقد خَطَرَ بها أفعالا؛ فيُطْرِقُ منشدا:

بَكـى صـاحِبي لَـمّـا رَأى الـدَّرْبَ دونَـهُ وَأَيْقَـنَ أَنّـا لاحِقـانِ بِقَـيْصَرا

فَقُلْـتُ لَـه لا تَبْـكِ عَيْنُـكَ إِنَّـما نُحـاوِلُ مُلْكًـا أَوْ نَمـــوتَ فَنُعْـذَرا

نَدَمًا أَنْ لم يَنْتَجِبْ للرِّحْلة؛ فَانْقَطَعَ، وأَنْ كانت إلى قَيْصَرٍ؛ فَاسْتَعْجَمَ!

[٧] ولقد يتعلق في ثقافتنا العربية الإسلامية، الإسلامُ بالعروبة، حتى لَيجوز لمـن شـاء الكمالَ، أن يدَّعي ألّا إسـلامَ إلا بعروبـة، وألّا عروبـةَ إلا بإسـلام؛ فباللغـة العربيـة المبينـة كـان الكتاب وكانت السنة اللذان هما وطن عقيدة الإسلام، وفَهِمَ وأَفْهَمَ غيرَهم العـربُ الـذين هـم حَمَلَة عقيدة الإسلام، وبالإسلام كانت العلوم وكانت الفنون التي أشعلت في رأس جبـل المجـد نار اللغة العربية، وتَعلَّم وعَلَّم غيرَهم اللغويون الذين هم حَمَلَةُ اللغة العربية.

[٨] وإن الثقافة الإسلامية، لؤلؤة ضخمة، رملة قلبها العقيدة البينة بالكتاب والسنة، وصَخْرَةُ جسمِها العلومُ والمعارف والخبرات والأقوال والأفعال والإقرارات، التي انبنت لمعتقد هذه العقيدة، بمعالجته النظر في نفسه وفيما حوله.

[٩] وإن سمو أية ثقافة على غيرها، إنما يكون بما تزيد في إنسانيَّة الإنسان، وتُخْصِبُ من حياته، وتنير من بصيرته ـ لا بما تزيد في حيوانيته، وتُجْدِبُ من حياته، وتُطْفِئُ من بَصيرته!

[١٠] وإن نسبة أية حضارة إلى منتسبها، بحيث يقال: إسلامية، ومسيحية، إنما تكون بثقافتها التي هي جذر شجرتها، على حينِ الماديات فرعُها، وليس أصدقَ في تصوير الحضارة، من تشبيهها بالشجرة الحية؛ فلا حياة لماديات الحضارة إلا بمعنوياتها، ولا سُطوع لمعنوياتها إلا بمادياتها، كما لا حياة لفرع الشجرة الحية إلا بجذرها، ولا سُطوع لجذرها إلا بفرعها.

[١١] وإن نسبة الأدب إلى الإسلام في «الأدب الإسلامي»، هي من نسبة الفن إليه في «الفن الإسلامي»، التي تجاري نسبة العلم إليه في «العلم الإسلامي»، وكلتا النسبتين من نسبة الحضارة إليه في «الحضارة الإسلامية»؛ فمن أبى نسبة الأدب، أبى نسبة الفن والعلم والحضارة، وأخفى رضاه عن عَوْلَمَةِ حضارة واحدة لم تسمح لغير أهلها إلا بالنَّقْصِ وإلا بالجَدْبِ وإلا بالعَمى.

ولأمرٍ ما قال بعض نقاد الحداثة: «على الرغم من أن للأيديولوجيا نسقًا مختلفًا عن الشعر والفن عامة، إلا أن بينهما من الارتباط ما لا يمكن إغفاله أو تجاوزه. ولاينهض ذلك من أن الشعر موقف جمالي من الواقع فحسب، بل ينهض أيضًا من أنه خطاب يتوسط بين المرسل والمتلقي اللذين لكل منهما موقعه ومنظوره، بمعنى أن الشعر بوصفه موقفًا وخطابًا جماليين، ينطوي بالضرورة على خطاب أيديولوجي ما. ومن ذلك، فإن الشعر يتحدد أيديولوجيًّا، مثلما يتحدد لغويًّا وذاتيًّا، غير أن تحديده الأيديولوجي لايؤدي به إلى أن يتحول إلى أيديولوجية. وإذا ما حصل ذلك، فإن انتفاء الشِّعْرِيِّ عن النص الذي من المفترض أن يكون شعريًّا، يغدو أمرًا محتومًا أو شبه محتوم»*.

* كليب (الدكتور سعد الدين): «وعي الحداثة: دراسات جمالية في الحداثة الشعرية»، نشرة موقع اتحاد الكتاب العرب الألكتروني.

أجل!

وهل شفع له قبلُ، حتى يشفع الآن!

لم يكن ليدَّعي في الإسلام، إلا كما يدعي في القوم من ليس منهم، ممَّن ربما كان مِنْ عدوِّهم!

«أمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً، وَأمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرْضِ»، صدق الحق، سبحانه، وتعالى!

[١٢] هذان مثالان: خبرُ وفود أبي جندلٍ عُبيدِ بنِ حُصَيْنٍ الراعي النُّمَيْريِّ، على عبد الملك بن مروان، يمدحه ويشكو إليه جباة الزكاة ـ وخبرُ مُذاكرة عليِّ بن الجَهْم السابق ذكره، والبُحتريِّ في أشعار زمانهما.

أما راعي الإبل فقد وفد على أمير المؤمنين، بلاميته التي مطلعها:

أَوَلِيَّ أَمْرِ اللهِ إِنّا مَعْشَرٌ حُنَفاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصيلا

عُرْبٌ نَرى للهِ في أَمْوالِنا حَقَّ الزَّكاةِ مُنَزَّلًا تَنْزيلا

قَوْمٌ عَلى الإِسْلامِ لَمّا يَمْنَعوا ماعونَهُمْ وَيُضَيِّعوا التَّهْليلا

وكان يُعَقِّقُ من أولاده من لم يحفظها هي وداليَّته التي مطلعها:

«بانَ الأَحِبَّةُ بِالْعَهْدِ الَّذي عَهِدوا...»

فقال له: ليس هذا شعرا، هذا شَرْحُ إسلامٍ، وقراءةُ آيةٍ*!

* البغدادي: ٣/ ١٤٦ ـ ١٤٧، والمرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران): «الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر»، حققه محمد علي البجاوي، وطبعته دار الفكر العربي بالقاهرة، ٢١٠.

وأما علي والبحتري فقد أفاضا في أشعار المحدثين إلى أن ذكرا أَشْجَعَ السُّلَميَّ، فقال عليٌّ للبحتري: إنه يُخْلي. واضطره شعرُ السُّلَميِّ إلى أن يعيدها عليه مَرَّاتٍ، ولم يفهمها!

قال البحتري: «وأنفتُ أن أسأله عن معناها، فلمّا انصرفتُ أَفْكَرْتُ في الكلمة، ونظرتُ في شعر أشجع، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مَغْسولةً ليس فيها بيت رائع، وإذا هو يريد هذا بعينه، أنّه يعمل الأبيات، ولا تُصيب فيها بيتًا نادرًا، كما أن الرامي إذا رمى برَشْقِهِ، فلم يُصبْ فيه بشيء، قيل: أَخْلى»*.

ثم قال البحتري: «وكان علي بن الجهم عالما بالشعر»*.

* المرزباني: ٣٦٢.

لن يجد الإسلام من الأدب حين يخرج لَوْكًا له، هليرغم نِعْمة التَّعَلُّق به، إلا ما يجد كِتابُه من تفسيره حين يخرج تكرارا له، حتى قال بعض النقاد، في أهل هذا النمط من التفسير: يمحو الواحد منهم عبارة «قرآنٌ كريمٌ»، من على غلاف المصحف، ويثبت في موضعها عبارة «تأليفُ الدكتور فلان»!

ولأمر ما قال الزمخشري:

قَدْ فَسَّرَ النّاسُ لكِنْ لا غَناءَ بِهِ فَالْجَهْلُ كَالدّاءِ وَالْكَشّافُ كَالشّافي!

[١٣] ولقد اجتمع رأي جماعة من دعاة الأدب الإسلامي، على إنشاء هيئة أدبية عالمية بعيدة من الصراعات السياسية والحزبية، تضمّ الأدباء المنتسبين إليها؛ فتوثّق أخوتهم في الكلمة الطيبة الهادفة، وترعى أدبهم، وتُجلّي مبادئه، وتُبيِّن أهدافه، وتنشره على العالم ـ لمّا دعاهم كما قالوا، «واجبُ الدعوة إلى الله عز وجل عن طريق الكلمة الأصيلة الملتزمة، وغربةُ الأدب الإسلامي، وسيطرةُ الأدب المزوّر على العالمين العربي والإسلامي»*.

* التقوا برئاسة أبي الحسن النَدْوي صاحب الدعوة الأولى ـ رحمه الله! ــ ودعوا إلى المؤتمر الأول للهيئة العامة في رحاب جامعة ندوة العلماء بمدينة لكنو الهندية، في ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م، فوضعوا نظاما أساسيا، وانتخبوا مجلس أمناء، وأبا الحسن الندوي رئيسًا

مدى الحياة، وأثبتوا هيئتهم بسِجِلّ المدينة الهندية رابطةً رسمية، ثم نقلوها إلى مدينة الرياض السعودية، في ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م، بعد وفاة الندوي ـ رحمه الله! ـ وانتخبوا الدكتور عبد القدوس أبو صالح، أحد مؤسسيها، رئيسًا لها.

[١٤] ولقد أرادوا الثلاثة عشر مرادا التالية:

«تأصيلُ الأدب الإسلامي وإبرازُ سماته في القديم والحديث. إرساءُ قواعد النقد الأدبي الإسلامي. صياغةُ نظرية متكاملة للأدب الإسلامي. وضعُ مناهج إسلامية للفنون الأدبية الحديثة. إعادةُ كتابة تاريخ الأدب الإسلامي في آداب الشعوب الإسلامية. جمعُ الأعمال الأدبية الإسلامية المتميزة، ونقلُها إلى لغات الشعوب الإسلامية وغيرها من اللغات العالمية. العنايةُ بأدب الأطفال. نقدُ المذاهب الأدبية المنحرفة، وإيضاحُ سلبياتها. تعزيزُ عالمية الأدب الإسلامي. توثيقُ الصلات بين الأدباء الإسلاميين، وإقامةُ التعاون بينهم، وجمعُ كلمتهم على الحق وفق منهج الحكمة والاعتدال. إسهامُ الأدب الإسلامي في تنشئة الأجيال المؤمنة، وصياغةِ الشخصية الإسلامية المعتزة بدينها القويم وتراثها العظيم. تيسيرُ وسائل النشر لأعضاء الرابطة. الدفاعُ عن الحقوق الأدبية للرابطة وأعضائها».

[١٥] وانطلقوا إلى نيل تلك المرادات من المبادئ الستة عشر التالية، التي تتضمن ما يمكن أن يعد خصائص الأدب الإسلامي الذي أرادوا:

«الأدبُ الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي. الأدبُ الإسلامي ريادة للأمة، ومسؤولية أمام الله عز وجل. الأدبُ الإسلامي أدب ملتزم، والتزامُ الأديب فيه التزام عفوي نابع من التزامه بالعقيدة الإسلامية، ورسالته جزء من رسالة الإسلام العظيم. الأدبُ طريق مهم من طرق بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح، وأداةٌ من أدوات الدعوة إلى الله عزّ وجلّ والدفاع عن الشخصية الإسلامية. الأدبُ الإسلامي مسؤول عن الإسهام في إنقاذ الأمة الإسلامية من محنتها المعاصرة، والأدباءُ الإسلاميون أصحاب ريادة في ذلك. الأدبُ الإسلامي حقيقة منذ انبلج فجر الإسلام، وهو يستمد عطاءه

من مشكاة الوحي وهَدْي النبوة، ويمتد عبر العصور إلى عصرنا الحاضر ليسهم في الدعوة إلى الله عز وجل، ومحاربة أعداء الإسلام والمنحرفين عنه. الأدبُ الإسلامي هو أدب الشعوب الإسلامية على اختلاف أجناسها ولغاتها، وخصائصُه هي الخصائص الفنية المشتركة بين آداب الشعوب الإسلامية كلها. يقدم التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون ـ كما نجده في الأدب الإسلامي ـ أصولا لنظرية متكاملة في الأدب والنقد، وملامح هذه النظرية موجودة في النتاج الأدبي الإسلامي الممتد عبر القرون المتوالية. يرفض الأدب الإسلامي أية محاولة لقطع الصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث بدعوى التطور أو الحداثة أو المعاصَرة، ويرى أن الحديث مرتبط بجذوره القديمة. يرفض الأدب الإسلامي النظريات والمذاهب الأدبية المنحرفة، والأدب العربي المزوّر، والنقد الأدبي المبني على المجاملة المشبوهة، أو الحقد الشخصي، كما يرفض لغة النقد التي يشوّهها الغموض وتفشو فيها المصطلحات الدخيلة والرموز المشبوهة، ويدعو إلى نقد واضح بنّاء، يعمل على ترشيد مسيرة الأدب، وترسيخ أصوله. الأدبُ الإسلامي أدب متكامل، ولا يتحقق تكامله إلا بتآزر المضمون مع الشكل. الأدبُ الإسلامي يفتح صدره للفنون الأدبية الحديثة، ويحرص على أن يقدمها للناس وقد برئت من كل ما يخالف دين الله عز وجل، وغَنِيَتْ بما في الإسلام من قيم سامية وتوجيهات سديدة. اللغةُ العربية الفصحى هي اللغة الأولى للأدب الإسلامي الذي يرفض العامية، ويحارب الدعوة إليها. الأديبُ الإسلامي مؤتمن على فكر الأمة ومشاعرها، ولا يستطيع أن ينهض بهذه الأمانة إلا إذا كان تصوره العقدي صحيحًا، ومعارفه الإسلامية كافية. الأدباءُ الإسلاميون متقيدون بالإسلام وقيمه، وملتزمون في أدبهم بمبادئه ومثله. إن رابطة العقيدة هي الرابطةُ الأصيلة بين أعضاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية جميعًا، ويضاف إليها آصرةُ الزمالة الأدبية التي تُعَدّ رابطةً خاصة، تشدّ الأدباء الإسلاميين بعضهم إلى بعض، مع وحدة المبادئ والأهداف التي يلتزمون بها».

* «النعريف بالرابطة»، و«النظام الاساسي»، و«ما هو الأدب الإسلامي»، نشرة موقع رابطة الأدب الإسلامي العالمية، الألكتروني.

[١٦] لا ريب في ضرورة الغضب المستمر على الواقع المُزري، سبيلا إلى التغيير.

ثُمَّ لا ريب في جدوى المؤازرة الطبيعية في العمل الجماعي؛ فيدُ الله - سبحانه، وتعالى! - مع الجماعة، وحيثما يَمَّمنا وجدنا الذئبَ يأكل منّا شاةً قاصيةً.

ثُمَّتَ لا ريب في شرف البذل للثقافة والمثقفين، تيسيرا وتمكينا.

ولكنَّ الريب في مقابلة اللغة العربية في المبادئ، باللهجات العربية، لا باللغات غير العربية، وإن كانت لغات شعوب أخرى من هذه الأمة، وفيما سبق من بيان علاقة الإسلام بالعربية، بلاغ.

ثُمَّ لكنَّ الرَّيْب في ذلك التعهد باطراح الصراعات السياسية والحزبية، وكأنه وفاء بما شَرَطَ الباذِلُ!

ثُمَّتَ لكنَّ الريبَ في أن تلتبس «سيطرة الأدب المزور على العالمين العربي والإسلامي»، على كثير من الأدباء الإسلاميين، بحيث يطَّرح ما سوى ما تقره الرابطة، في سبيل تأكيد الولاء بالبراء!

وحَسْبُنا التنبيهُ على ما لرئيس الرابطة الدكتور عبد القدوس أبو صالح نفسه، من تحقيقات مشهورة عندنا، لبعض كتب الأدب القديم، من مثل: «يزيد بن مفرغ الحميري وشعره»، و«تحقيق وشرح ديوان ذي الرمة لأبي نصر الباهلي».

فإن يزيد شاعر مشهور بمخالفاته على أمير المؤمنين، في مثل قوله:

أَلا أَبْلِغْ مُعاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ مُغَلْغَلَةً مِنَ الرَّجُلِ الْيَماني

أَتَغْضَبُ أَنْ يُقالَ أَبوكَ عَفٌّ وَتَرْضى أَنْ يُقالَ أَبوكَ زانِ!

وإن ذا الرمة شاعر مشهور بصحبة عزة التي حَكَّمها عليه، بقوله:

«أَسيئي بِنا أَوْ أَحْسِني لا مَلومَةً لَدَيْنا وَلا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ»!

[١٧] ليس مجهولا على الزمان، بُعْدُ هِمَم الثُّوار للعقائد الصحيحة الطيبة، وجلال غاياتهم. ولكن المجهول ما يكون منهم بعد هدوء ثورتهم!

أخشى أن يكون أهلنا الأدباء الرابطيّون، قد اكتفوا ببعض ما شرطوا على أنفسهم، دون أن يغنيهم ولا أن يغنينا، عن بعضه.

إننا لا نجدهم كلما أردناهم، ولا حيثما أردناهم، ولا على ما أرادوا لأنفسهم وأردنا لهم؛ فإذا وجدناهم، كانوا كما قال أمير المؤمنين، شُرّاحَ إسلام وقُرّاءَ آيات.

## وا عَروضَ شِعْراهْ!

يا رَوْضَةَ النّيلِ لا مَسَّتْكِ بائِقَةٌ وَلا عَدَتْكِ سَماءٌ ذاتُ أَغْداقِ

وَلا بَرِحَتْ مِنَ الأَوْراقِ في حُلَلٍ مِنْ سُنْدُسٍ عَبْقَرِيِّ الوَشْيِ بَرّاقِ

ياحَبَّذا نَسَمٌ مِنْ جَوِّها عَبِقٌ يَسْري عَلى جَدْوَلٍ بِالماءِ دَفّاقِ

بَلْ حَبَّذا دَوْحَةٌ تَدْعو الهَديلَ بِها عِنْدَ الصَّباحِ قَمارِيٌّ بِأَطْواقِ

مَرْعى جِيادي وَمَأْوى جيرَتي وَحِمى قَوْمي وَمَنْبِتُ آدابي وَأَعْراقي

في قَلْبِ مَدارِ النيل الجليل تُزْهِرُ رَوْضَةُ مِصْرَ العَتيقةِ مُبارَكَةً بدعوة محمود سامي البارودي رَبِّ السَّيْفِ والقَلَمِ السابقة بظهر غَيْبِهِ عنها في سَرَنْديبَ مَنْفيًّا مع أحمد عرابي - رضي الله عنهما! - ثورةً لكرامتها.

ثم في قَلْبِ رَوْضَةِ مِصْرَ الْعَتيقَةِ يَدورُ مَيْدانُ المَماليكِ البَحْرِيَّةِ قريبا من مِقْياس النيل الذي كانت مَسيرةُ سلطانهم في دَوْلَتِهِمْ من القلعة إليه وفاءً بوفاءٍ، مَحْفِلًا حافِلًا بَهيجًا مُبْهِجًا.

ثم على قلب مَيْدان المماليك البَحْرية تقوم أَشْجارٌ مُلْتَفَّةٌ مُسَوَّرَةٌ مُبَوَّبَةٌ مُغْلَقَةٌ مُثيرةٌ نَهارًا مُخيفَةٌ لَيْلًا، كأنها تاجُ المماليك الخُرافِيُّ يَنْتَظِرُ دَوْلَتَهُمْ!

ثم من قلب تاجِ المماليك تَتَنادى زَمْزَماتٌ فَيْتوريَّةٌ تَتَقاذَفُها أَرْجاؤه:

دن دن... دددن... دن دن... دددن... دن دن... دن ن
في حَضْـ... رَةِ مَنْ... أَهْوى... عَبَثَتْ... بي الأَشْـ... واقْ
دن دن... دددن... دن دن... دددن... دددن... دن ن
حَدَّقْـ... تُ بلا... رَأْسٍ... وَرَقَصْـ... تُ بِلا... ساقْ
دددن... دددن... دن دن... دددن... دن دن... دن ن
وَزَحَمْـ... تُ برا... ياتي... وَطُبو... لِيَ الآ... فاقْ
دن دن... دن دن... دن دن... دددن... دن دن... دن ن
عِشْقي... يُفْني... عِشْقي... وَفَنا... ئي اسْتِغْـ... راقْ
دن دن... دددن... دن دن... دن دن... دن دن... دن ن
مَمْلو... كُكَ لـ... كِنّي... سُلْطا... نُ الْعُشْـ... شاقْ

فَيَتَفَجَّرُ من تحته يَنْبوعٌ مُثَلَّثُ العيون عن ثلاثة أَشْباحٍ سُمْرٍ مُؤْتَلفينَ مُخْتَلفينَ: أمّا أَنَسٌ فشابٌّ جَليدٌ مُتَزَمِّلٌ بالأبيض الناصع، وأما أَيْمَن فكَهْلٌ بَدينٌ مُتَلَفِّعٌ بالأخضر الداكن، وأما بَراء فشَيْخٌ سَمينٌ مُتَلَفِّفٌ بالأسود الدامس، قَدْ وَلَّوْا وُجوهَهُمْ شَطْرَ مُنْحَدَرِ النَّهْرِ الأَعْظَمِ بِصَدًى حَسّانِيٍّ واحِدٍ:

ددن دن... ددن دن... ددن دن... ددن د... ددن دن... ددن د... ددن دن... ددن

وَلِي صا... حِبٌ مِنْ... بَني الشَّيْـ... صَبانِ... فَطَوْرًا... أَقولُ... وَطَوْرًا... هُوَهْ

فإذا تَيّارٌ مَوّارٌ يَتَدَفَّقُ مِنْ صَبَبِ شَطْرِهِمْ ثم يتفجر عن شَبَحٍ مُنْكَرٍ بينهم مَعْروفٍ عندهم، بِصَوتٍ غَريبٍ واحِدٍ:

ددن دن... ددن دن... ددن
أَتَيْتُ الـ... مَدى عَنْ... قَدَرْ
ددن د... ددن دن... ددن
رَكِبْتُ... رُؤوسَ الـ... بَطَرْ
ددن د... ددن دن... ددن
وَصَلْتُ... شُعاعَ الـ... خَطَرْ
ددن د... ددن دن... ددن
بطاعَـ... ةِ رَأْيِ الـ... حَذَرْ
ددن د... ددن دن... ددن دن
أَنا دَ... رَكُ الطَّيْـ... ش شَحْبَلْ
ددن د... ددن دن... ددن دن... ددن دن
سَيَنْفَـ... تِحُ الْبا... بُ يَوْمًا... لِأَدْخُلْ

فصاحوا: مَوْلانا أبو مِذْوَدٍ شَحْبَلُ بْنُ مِسْحَلِ بْنِ أَبي مُرَّةَ الشَّيْصَبانِيِّ، سِلْمُ كُلِّ فَنّانٍ إِنْسانِيٍّ، حَرْبُ كُلِّ عالِمٍ حَيَوانِيٍّ!

أبو مذود: مَرْحى بِمَنْ طَرِبوا لِلْفَنِّ فَاقْتَرَبوا　　مَرْحى وَلَوْ نَصِبوا لِلْعِلْمِ لَاغْتَرَبوا

مواليه: يا بَهْجَتَنا بِكَ حاضِرًا فينا غائِبًا عَنّا، وشَوْقَنا إِلَيْكَ غائِبًا عَنّا حاضِرًا فينا!

أبو مذود: يا بَهْجَتي جَميعًا بِكُمْ شَمْلي.

مواليه: أحسن الله إليك! إنما نحن مَواليكَ وخِرّيجوكَ!

أبو مذود: أحسن الله إليكم! بل أنتم مَكْمَلي ومَحْيايَ ومَخْلَدي.

مواليه: عافاكَ اللهُ! أَبِفَنائِنا تَخْلُد، أَمْ بِمَواتِنا تَحْيا، أَمْ بِنَقْصِنا تَكْمُلُ!

أبو مذود: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ. إِنَّ وَراءَ الْأَكَمَةِ ما وَراءَها!

مواليه: وَراؤُها كَأَمامِها:

فَغَدَتْ كِلا الْفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مَوْلى الْمَخافَةِ خَلْفُها وَأَمامُها!

أبو مذود: تِلْكُمْ ـ يا مَكْمَلي ومَحْيايَ ومَخْلَدي ـ بَقَرَةُ سيدنا لَبيدٍ ـ رضي الله عنه! ـ أَدْرَكها الكَلّابُ وكِلابُهُ!

مواليه: فَنَجّاها منها؛ فَمَنْ لِلأَهْوالِ يُخَفِّفُ بَعْضُها بَعْضًا!

أبو مذود: «اللهُ يُنَجّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ»؛ فَمَهْ؟

مواليه: طلبنا حقيقة أنفسنا وحقيقة مَن حَوْلَنا وما حَوْلَنا.

أبو مذود: عَزَّتْ أَهْوالًا وجَلَّتْ!

مواليه: فَتَنازَعَتْنا الحقائِقُ!

أبو مذود: كيف ـ يا مساكين ـ وما ثَمَّ إلا حقيقةٌ واحدة عليها تدور الصور:

وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ الْواحِدُ

لَكَأَنَّكُمْ ما طلبتم إلا الأوهام؛ فهاتوا ما عندكم!

مواليه: أَولِعْنا بالكلام؛ فَنَحْنُ نَتَأَمَّلُه.

أبو مذود: أَيُّ كَلامٍ؟

مواليه: كلام الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ ثم كلام رسوله ـ صلى الله عليه، وسلم! ـ ثم كلام أوليائهما ـ رضي الله عنهم! ـ ثم كلامنا وكلام سائر الناس ـ عفا الله عنا! ـ في كل زمان ومكان، الذي نقف عليه أو يقف علينا.

أبو مذود: عَزَّ كَلامًا، وَجَلَّ! وأَيُّ تَأَمُّلٍ؟

مواليه: مُذاكرةُ مسائلَ فيه سائرة مشكلة.

أبو مذود: عَزَّ تَأَمُّلا، وَجَلَّ! مِنْ مِثْلِ مَهْ؟

مواليه: مِنْ مِثْلِ مسألة تخريج الشعر في علم العروض.

أبو مذود: إِنَّها لَمَسْأَلَةٌ، فَكَيْفَ نَشَأَ لَكُمْ أَصْلُها؟

أنس: تَساجلنا مرة في عروض الشعر العربي، على أن يُعَيِّنَ البادئُ ما شاء من أنماطه معروفةً أو مجهولةً، لِيُنْشِدَ منها المبدوءان ما شاءا من القصائد معروفةً أو مجهولةً.

أبو مذود: ما في هذا مِنْ بَأْسٍ؟

أنس: فَعَيَّنْتُ نمطَ بحر البسيط الوافيَ المخبونَ العروض والضرب، ذا القافية النونية المطلقة المجردة الموصولة بالواو؛ فأنشدني براء من لامية أبي بصير أعشى قيس الباذخة الشامخة، قوله:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطيقُ وَداعًا أَيُّها الرَّجُلُ
غَرّاءُ فَرْعاءُ مَصْقولٌ عَوارِضُها تَمْشي الْهُوَيْنى كَما يَمْشي الْوَجي الْوَحِلُ
كَأَنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ وَلا عَجَلُ
تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا إِذا انْصَرَفَتْ كَما اسْتَعانَ بِريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ
لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجيرانُ طَلْعَتَها وَلا تَراها لِسِرِّ الْجارِ تَخْتَتِلُ
يَكادُ يَصْرَعُها لَوْلا تَشَدُّدُها إِذا تَقومُ إِلى جاراتِها الْكَسَلُ
إِذا تَقومُ يَضوعُ الْمِسْكُ أَصْوِرَةً وَالزَّنْبَقُ الْوَرْدُ مِنْ أَرْدانِها شَمِلُ
ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْراءُ جادَ عَلَيْها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشَّمْسَ مِنْها كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْها نَشْرَ رائِحَةٍ وَلا بِأَحْسَنَ مِنْها إِذْ دَنا الْأُصُلُ

أبو مذود: تأملوا - يا مُكَمِّلي ومُحَيّايَ ومُخَلِّدي - كيف أثنى على صاحبته خَلْقًا وخُلُقًا، ثم كيف وَضَعها مَوْضِعَها من محاسن خَلْقِ الله، ثم كيف خَيَّلَ لَنا قَوْلَ رسولنا - صلى الله عليه،

وسلم! ـ: «إِنَّما الدُّنْيا مَتاعٌ، وَخَيْرُ مَتاعِها الْمَرْأَةُ الصّالِحَةُ»، ثم لا تذهلوا عما في قوله: «لَوْلا تَشَدُّدُها»، من احتراس شريف؛ فقاتله الله، ما أشعره!

أنس: وأنشدني أيمن من نونيّة أبي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي الباذخة الشامخة، قوله:

بِمَ التَّعَلُّلُ لا أَهْلٌ وَلا وَطَنُ ... وَلا نَديمٌ وَلا كَأْسٌ وَلا سَكَنُ

أُريدُ مِنْ زَمَني ذا أَنْ يُبَلِّغَني ... ما لَيْسَ يَبْلُغُهُ في نَفْسِهِ الزَّمَنُ

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلّا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... ما دامَ يَصْحَبُ فيهِ روحَكَ الْبَدَنُ

فَما يُديمُ سُرورٌ ما سُرِرْتَ بِهِ ... وَلا يَرُدُّ عَلَيْكَ الفائِتَ الحَزَنُ

مِمّا أَضَرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمُ ... هَووا وَما عَرَفوا الدُّنْيا وَما فَطِنوا

تَفْنى عُيونُهُمُ دَمْعًا وَأَنْفُسُهُمْ ... في إِثْرِ كُلِّ قَبيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

تَحَمَّلوا حَمَلَتْكُمْ كُلُّ ناجِيَةٍ ... فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَيَّ الْيَوْمَ مُؤْتَمَنُ

ما في هَوادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتي عِوَضٌ ... إِنْ مِتُّ شَوْقًا وَلا فيها لَها ثَمَنُ

يا مَنْ نُعيتُ عَلى بُعْدٍ بِمَجْلِسِهِ ... كُلٌّ بِما زَعَمَ الْواشونَ مُرْتَهَنُ

كَمْ قَدْ قُتِلْتُ وَكَمْ قَدْ مِتُّ عِنْدَكُمُ ... ثُمَّ انْتَفَضْتُ فَزالَ الْقَبْرُ وَالْكَفَنُ

قَدْ كانَ شاهَدَ دَفْني قَبْلَ قَوْلِهِمُ ... جَماعَةٌ ثُمَّ ماتوا قَبْلَ مَنْ دَفَنوا

ما كُلُّ ما يَتَمَنّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ ... تَجْري الرِّياحُ بِما لا تَشْتَهي السُّفُنُ

أبو مذود: تأملوا ـ يا مَكْمَلي ومَحْيايَ ومَخْلَدي ـ كيف أَشْرَفُ على الدنيا فارسا متحققا بمعنى الفروسية، عالي الهمة، طامح الأمل، شديد الأنفة، ثم كيف ضَيَّعَ هو تضييعه واهتدى، وقَتَّلَ هو تقتيله وعاش، ثم كيف خَيَّلَ لنا ما سارت به سيرة عنترة الفلحاء، مِنَ انْتِفاضِهِ مِنْ قَبْرِهِ لما اجْتَرَأَ عليه زائِرُه؛ فقاتله الله، ما أشعره!

أنس: فأحسنا ما شاءا؛ فإن القصيدتين تتخرجان بالتَّقْطيع (بيان أجزاء كل بيت من القصيدة) ثم بالتَّجْريد (بيان دندنة إيقاع الأجزاء) ثم بالتَّفْعيل (بيان رموز التفاعيل المصطلح بها على الأجزاء) ثم بالتَّوْصيف (بيان أحوال التفاعيل سلامة وتغيرا) في علم العروض، على مثل ما يتخرج آخر ما أنشدا منهما فيما يلي:

| يَوْمًا بِأَطْـ | يَبَ مِنْ | ها نَشْرَ را | ئِحَةٍ | وَلا بِأَحْـ | سَنَ مِنْ | ها إِذْ دَنا الْـ | أُصُلُ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| دن دن ددن | دددن | دن دن ددن | دددن | ددن ددن | دددن | دن دن ددن | دددن |
| مستفعلن | فعلن | مستفعلن | فعلن | متفعلن | فعلن | مستفعلن | فعلن |
| سالمة | مخبونة | سالمة | مخبونة | مخبونة | مخبونة | سالمة | مخبونة |
| ما كُلُّ ما | يَتَمَنْـ | نى الْمَرْءُ يُدْ | رِكُهُ | تَجْري الرِّيا | حُ بِما | لا تَشْتَهي السُّـ | سُفُنُ |
| دن دن ددن | دددن | دن دن ددن | دددن | دن دن ددن | دددن | دن دن ددن | دددن |
| مستفعلن | فعلن | مستفعلن | فعلن | مستفعلن | فعلن | مستفعلن | فعلن |
| سالمة | مخبونة | سالمة | مخبونة | سالمة | مخبونة | سالمة | مخبونة |

فعَيَّنَ أيمن نمطا من بحر البسيط نفسه، بخمس وعشرين تفعيلة، ذا تسع أعاريض غير ثابتة الصورة، وستة أضرب أولها وثانيها ورابعها وخامسها مقطوعة مُسَبَّغَةٌ، وثالثها وسادسها مُذَيَّلانِ، وذا ست قواف نونية مقيدة أولاها وثانيتها ورابعتها وخامستها مُرْدَفَةٌ بالألف وثالثتها وسادستها مردفتان بياء المد - فَبُهِتُّ أنا وبراء!

فقرأ علينا مما زعم أنه نونية محيي الدين بن عربي الأندلسي، قوله:

سَرائِرُ الْأَعْيانْ

لاحَتْ عَلى الْأَكْوانْ

لِلنّاظِرينْ

وَالْعاشِقُ الْغَيْرانْ

مِنْ ذاكَ في بُحْرانْ

يُبْدي الْأَنينْ

يَقولُ وَالْوَجْدُ

أَضْناهُ وَالْبُعْدُ

قَدْ حَيَّرَهْ

لَمّا دَنا الْبُعْدُ

لَمْ أَدْرِ مِنْ بَعْدُ
مَنْ غَيَّرَهْ
وَهُيِّمَ الْعَبْدُ
وَالْواحِدُ الْفَرْدُ
قَدْ خَيَّرَهْ
في الْبَوْحِ وَالْكِتْمانْ
وَالسِّرِّ وَالْإِعْلانْ
في الْعالَمِينْ
أنا هُوَ الدَّيّانْ
يا عابِدَ الْأَوْثانْ
أَنْتَ الضَّنِينْ
كُلُّ الْهَوى صَعْبُ
عَلى الَّذي يَشْكو
ذُلَّ الْحِجابْ
يا مَنْ لَهُ قَلْبُ
لَوْ أَنَّهُ يَذْكو
عِنْدَ الشَّبابْ
قَرَّبَهُ الرَّبُّ
لكِنَّهُ إِفْكُ
فَانْوِ الْمَتابْ
وَنادِ يا رَحْمنْ
يا بَرُّ يا مَنّانْ

إنّي حَزينْ

أَضْنانِيَ الْهِجْرانْ

وَلا حَبيبٌ دانْ

وَلا مُعينْ (...)

دَخَلْتُ في بُسْتانْ

اَلأُنْسِ وَالْقُرْبِ

لِكَنيسهْ

فَقامَ لي الرَّيْحانْ

يَخْتالُ مِنْ عُجْبِ

في سُنْدُسِهْ

أنا هو يا إنْسانْ

مُطَيِّبُ الصَّبِّ

في مَجْلِسِهْ

جَنّانُ يا جَنّانْ

اِجْنِ مِنَ الْبُسْتانْ

اَلْياسَمينْ

وَخَلِّ ذا الرَّيْحانْ

بِحُرْمَةِ الرَّحْمنْ

لِلْعاشِقينْ

أبو مذود: تأملوا - يا مَكْمَلي ومَحْيايَ ومَخْلَدي - كيف أذاب خَلْقَ الحَقِّ - سبحانه، وتعالى! - كُلَّه بعضه في بعض بباء الطاعة، ثم كيف دَلَّ على تَأَتي مَقام المعرفة بالصبر على الكَشْف،

ثم كيف خَيَّلَ لنا قول الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ: «أَمّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعيمٍ»؛ فقاتله الله، ما أشعره!

**أيمن:** هي من النمط الذي عَيَّنْتُهُ لها كما كانت نونية أبي الطيب من النمط الذي عَيَّنَهُ لنا أنس؛ فإنها تتخرج بالتقطيع ثم بالتجريد ثم بالتفعيل ثم بالتوصيف في علم العروض، على مثل ما يتخرج آخرها فيما يلي:

| | |
|---|---|
| دَخَلْتُ فِي | بُسْتانْ |
| ددن ددن | دن دن ن |
| متفعلن | فاعلْنْ |
| مخبونة | مقطوعة مُسَبَّغَةٌ |
| اَلْأُنْسِ وَالْـ | قُرْبِ |
| دن دن ددن | دن دن |
| مستفعلن | فاعلْ |
| سالمة | مقطوعة |
| لِمَكْنِيِهْ | |
| ددن ددن | |
| متفعلن | |
| مخبونة | |
| فَقامَ لِي الرْ | رَيْحانْ |
| ددن ددن | دن دن ن |
| متفعلن | فاعلْنْ |
| مخبونة | مقطوعة مسبغة |
| يَخْتالُ مِنْ | عُجْبِ |
| دن دن ددن | دن دن |
| مستفعلن | فاعلْ |
| سالمة | مقطوعة |
| فِي سُنْدُسِهْ | |
| دن دن ددن | |

| | |
|---|---|
| مستفعلن | |
| سالمة | |
| أنا هو يا | إِنْسانْ |
| ددن ددن | دن دن ن |
| متفعلن | فاعلْنْ |
| مخبونة | مقطوعة مسبغة |
| مُطَيِّبُ الضـ | صَبِّ |
| ددن ددن | دن دن |
| متفعلن | فاعلْ |
| مخبونة | مقطوعة |
| في مَجْلِسِهْ | |
| دن دن ددن | |
| مستفعلن | |
| سالمة | |
| جَنّانُ يا | جَنّانْ |
| دن دن ددن | دن دن ن |
| مستفعلن | فاعلْنْ |
| سالمة | مقطوعة مسبغة |
| اِجْنِ مِنَ الْـ | بُسْتانْ |
| دن ددن | دن دن ن |
| مستعلن | فاعلْنْ |
| مطوية | مقطوعة مسبغة |
| ٱلْياسَمينْ | |
| دن دن ددن ن | |
| مستفعلان | |
| مُذَيَّلَةٌ | |
| وَخَلِّ ذا الرَّ | رَيْحانْ |
| ددن ددن | دن دن ن |

| متفعلن | فاعلْنْ |
|---|---|
| مخبونة | مقطوعة مسبغة |
| بِحُزْمَةِ الزْ | رَمَنْ |
| ددن ددن | دن دن ن |
| متفعلن | فاعلْنْ |
| مخبونة | مقطوعة مسبغة |
| لِلْعاشِقينْ | |
| دن دن ددن ن | |
| مستفعلان | |
| مذيلة | |

أنس: فَعَيَّنَ براء نمطا من بحر البسيط نفسه، غيرَ ثابتِ الطول، ولا منقسمٍ ـ فلا عروضَ له ـ مقطوعَ الضرب، ذا قافية رائية مطلقة مردفة بالألف وموصولة بالواو؛ فبُهِتُّ أنا وأيمن!

فقرأ علينا فيما زعم أنه «طَلَلِيَّةُ» أحمد عبد المعطي حجازي، قوله:

كانَ الْحَنينُ مَدًى عَذْبا وَكانَ لَنا مِنْ وَجْهِها كَوْكَبٌ في اللَّيْلِ سَيّارُ

هذا دُخانُ الْقُرى ما زالَ يَتْبَعُنا وَمِلْءُ أَحْلامِنا زَرْعٌ وَأَجْنِحَةٌ وَصِبْيَةٌ وَطَريقٌ في الْحُقولِ إِلى الْمَوْتى وَصَبّارُ

فَمُلْتَقى الْأَرْضِ بِالْأُفْقِ الَّذي اشْتَعَلَتْ أَلْوانُهُ شَفَقًا فَالْقاطِراتُ الَّتي غابَتْ مُوَلْوِلَةً في بُؤْرَةِ الضَّوْءِ فَالْحُزْنُ الَّذي هَطَلَتْ عَلَيَّ أَمْطارُهُ يَوْمًا فَصِرْتُ إِلى طَيْرٍ وَسافَرْتُ مِنْ حُزْنِ الصَّبِيِّ إِلى حُزْنِ الرِّجالِ فَكُلُّ الْعُمْرِ أَسْفارُ

يا صاحِبَيَّ قِفا فَالشَّمْسُ قَدْ رَجَعَتْ وَلَمْ تَعُدْ بِغَدٍ كُلُّ الْمَقاهي انْتِظارٌ ساءَ ما فَعَلَتْ بِنا السُّنونَ الَّتي تَمْضي وَنَحْنُ عَلى مَوائِدٍ في الزَّوايا ضارِعينَ إِلى شَمْسٍ تَخَلَّلَتِ الْبِلَّوْرَ واهِنَةً وَلامَسَتْ جِلْدَنا الْمُعْتَلَّ وَانْحَسَرَتْ عَنّا إِلى جارِنا فَما نَعِمْنا وَلَمْ يَنْعَمْ بِها الْجارُ

يا صاحِبَيَّ أَخَمْرٌ في كُؤوسِكُما أَمْ في كُؤوسِكُما هَمٌّ وَتَذْكارُ

وَما الَّذي تَنْفَعُ الذِّكْرى إذا نَكَأَتْ في القَلْبِ جُرْحًا عَلِمْنا لا دَواءَ لَهُ حَتّى نَعودَ وَما يَبْدو أَنِ اقْتَرَبَتْ أَيّامُ عَوْدَتِنا وَالجُرْحُ نَغّارُ

ها نَحْنُ نُفْرِطُ فَوْقَ النَّهْرِ وَرْدَتِنا وَتِلْكَ أَوْراقُها تَنْأى وَيَأْخُذُها وَراءَ أَحْلامِنا مَوْجٌ وَتَيّارُ

يا صاحِبَيَّ أَحَقًّا أَنَّها وَسِعَتْ أَعْداءَها وَجَفَتْ أَبْناءَها الدّارُ

لَوْ أَنَّها حوصِرَتْ حَتّى النِّهايَةِ حَتّى المَوْتِ لَوْ سَحَبَتْ عَلى مَفاتِنِها غِلالَةً مِنْ مِياهِ النّيلِ وَاضْطَجَعَتْ في قاعِهِ لَوْ سَفَتْها الرّيحُ فَانطَمَرَتْ في الرَّمْلِ وَانْدَلَعَتْ مِنْ كُلِّ وَرْدَةِ جُرْحٍ وَرْدَةٌ فَالمَدى عُشْبٌ وَنُوّارُ

هذا دُخانُ قُراها يَقْتَفي دَمَنا وَمِلْءُ أَحْلامِنا زَرْعٌ وَأَجْنِحَةٌ وَمِلْءُ أَحْلامِنا ذِئْبٌ نَهَشُّ لَهُ نَسْقيهِ مِنْ كَأْسِنا الذّاوي وَنَسْأَلُهُ عَنْها وَنَنْهارُ

أبو مذود: تَأَمَّلوا - يا مَكْمَلي ومَحْيايَ ومَخْلَدي - كيف أحال بلده المعمور إلى أطلالٍ مُحْرَجًا، ثم كيف وقف على الأطلال البعيدة قريبا، ثم كيف رَدَّ الذكرى على الذكرى خائفا، ثم كيف خَيَّلَ لنا صَوابَ دَعْوَةِ الأَوَّلِ على الأطلال: «وَلا زالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعائِكِ القَطْرُ» كارها كُلَّ مُؤَمِّنٍ؛ فقاتله الله، ما أشعره!

براء: هي من النمط الذي عَيَّنْتُهُ لهما كما كانت نونية أبي الطيب من النمط الذي عَيَّنَهُ لنا أنس، وكما كانت نونية محيي الدين بن عربي الأندلسي من النمط الذي عينه لنا أيمن؛ فإنها تتخرج بالتقطيع ثم بالتجريد ثم بالتفعيل ثم بالتوصيف في علم العروض، على مثل ما يتخرج آخرها فيما يلي:

| هذا دُخا | نُ قُرا | ها يَقْتَفي | دَمَنا | وَمِلْءُ أَحْـ | لامِنا | زَرْعٌ وَأَجْـ | نِحَةٌ | وَمِلْءُ أَحْـ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| دن دن ددن | دددن | دن دن ددن | دددن | ددن ددن | دن ددن | دن دن ددن | دددن | ددن ددن |
| مستفعلن | فعلن | مستفعلن | فعلن | متفعلن | فاعلن | مستفعلن | فعلن | متفعلن |
| سالمة | مخبونة | سالمة | مخبونة | مخبونة | سالمة | سالمة | مخبونة | مخبونة |
| لامِنا | ذِئْبٌ نَهَشْـ | شُ لَهُ | نَسْقيهِ مِنْ | كَأْسِنا الذْ | ذاوي وَنَسْـ | أَلُهُ | عَنْها وَنَنْـ | هارُ |
| دن ددن | دن دن ددن | دددن | دن دن ددن | دن ددن | دن دن ددن | دددن | دن دن ددن | دن دن |

| فاعلن | مستفعلن | فعلن | مستفعلن | فاعلن | مستفعلن | فعلن | مستفعلن | فاعلْ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| سالمة | سالمة | مخبونة | سالمة | سالمة | سالمة | مخبونة | سالمة | مقطوعة |

أنس: فصحتُ أنا وأيمن أنْ بئس ـ والله ـ النمط ما نَمَّطتَّ يا براء! فصاح فينا: بل بئس ـ والله ـ الطَّرَبُ ما طَرِبْتُما! ثم بئس النمطُ ـ وأَعَنْتُهُ على هذه ـ ما نَمَّطتَّ يا أيمن! فصاح فينا بل بئس ـ والله ـ الطَّرَبُ ما طَرِبْتُما!

أبو مذود: بل بئس ـ والله ـ الخَيْبَةُ ما خِبْتُ!

مواليه: اللهم نجاةً!

أبو مذود: مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغَفَلَةِ!

مواليه: حاشاك وإيّانا أن نكون من الغافلين!

أبو مذود: وهل أغفل ممن استأنسوا من العلم مستوحشين من الفن، «وَما تَفَرَّقوا إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ»، صدق الله العظيم!

مواليه: حَنانَيْكَ، مولانا، قلوبنا أَوْعِيَةٌ أَواعٍ بين يديك!

أبو مذود: إِنَّ الْمُوَصَّيْنَ بَنو سَهْوانَ!

مواليه: «عَفا اللهُ عَمّا سَلَفَ»!

فَتَساخَرَ أبو مذود: فأما السالف منكم إليَّ فلا!

فَتَصاغَرَ مواليه: «وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ»!

فَرَقَّ لَهُمْ أبو مذود: «لا تَثْريبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ».

اعلموا ـ يا مساكين ـ أنكم جميعا مصيبون غير مخطئين؛ فلقد تساجلتم في عروض الشعر لا في علم عروض الشعر، وإن كنتم عَيَّنْتُمْ أعاريضكم بمصطلحاته.

وبين عروض الشعر وعلم عروضه فرق واضح؛ فعروضه تكرار مُرَكَّباتِ مقاطع أصواته اللغوية الْمُعَيَّنَةِ، على نحو خاص يدركه السامع ويرتاح له، وعلم عروضه منهج البحث عنه المفضي إلى ضبطه بقواعد أصيلة جامعة مانعة.

ثم بين حركة عروض الشعر وحركة علم عروضه فرق كذلك واضح؛ فحركة عروضه سريعة سابقة لحركة علمه، وحركة علمه بطيئة لاحقة لحركة عروضه؛ فربما وَلَّدَ شاعر في شعره ما أهمله عالم في علمه جريًا على ألا يثبت إلا ما تواترت على توليده أجيال من الشعراء، وعلى قبوله أجيال من المتلقين.

براء: أجل، قد أهمل الخليل بحر المتدارك!

أبومذود: أهمله ـ رضي الله عنه! ـ وله منه قصيدتان، إهمالَ العالِم، وأثبته على دائرة المُتَّفِق مُهْمَلًا؛ فلله دره، أيَّ إنسان كان! لَمّا لم يكن تَواتَرَ عليه غيره لم يثبته، وكأني بالأخفش وارثِ علمه وباب الناس إليه، لم يُعْمِلْهُ إلا بقصيدتيه إكبارا له!

أيمن: وربما تواترت على التوليد أجيال من الشعراء، وعلى القبول أجيال من المتلقين، والعالِمُ على إهمالِهِ نَفْسِهِ لا يَتَحَلْحَلُ!

أبو مذود: أجل، نِحْلَةٌ فيه قَدامِيَّةٌ يَدْرَأُ بها نِحْلَةَ في الشعراء حَداثِيَّةً أو مُسْتَقْبَلِيَّةً!

أنس: وهل القدامية في العلماء دون الفنانين، والحداثية والمستقبلية في الفنانين دون العلماء؟

أبو مذود: اعلموا ـ يا مَكْمَلي ومَحْيايَ ومَخْلَدي ـ أن القدامي من اشتغل بالماضي وعمل له، والحداثي من اشتغل بالحاضر وعمل له، والمستقبلي من اشتغل بالمستقبل وعمل له؛ ومن ثم يكونهم العلماءُ والفنانون جميعا.

ولكننا نقبل الفنان قداميا أو حداثيا أو مستقبليا لا يرى غير نفسه، ولا نقبل العالم إلا قداميا حداثيا مستقبليا جميعا معا، حتى إذا تَلاعَنَ بين يديه الفنانون الثلاثة وتَنافَوْا، استوعبهم بكمال نظره الذي لن يكون إلا بمزج أعمالهم كلها بعضها ببعض مادةً لعمله.

ومن ثم ظهر بَيِّنًا جَلِيًّا في الحضارات المختلفة جَوْرُ الفنان، وغَمَضَ وصَعُبَ اجتماعُ الفن والعلم لإنسان واحد!

براء: قَداميّانِ باليان!

أيمن: غافِلانِ غائِبان!

أنس: مُسْتَقْبليّانِ واهِمان!

أبو مذود: إنَّ المُوَصَّيْنَ بَنو سَهْوان!

ما صاحباك ـ يا أنس ـ بواهمين، ولا صاحباك ـ يا أيمن ـ بغائبين، ولا صاحباك ـ يا براء ـ ببالين، بل ما ذكرتموه ـ يا مساكين ـ كله شعر عربي بعروض عربي.

مواليه: أيْنَ، أيّانَ، أنّى؟

أبو مذود: أما النمط الأول الذي عَيَّنَهُ أنس، فالنوع القديم المستمر، الذي نشأ بجزيرة العرب قبل هجرة رسول الإسلام ـ صلى الله عليه، وسلم! ـ بعدة قرون ربما كانت خمسة، وضبطه الخليل ـ رضي الله عنه! ـ بكتابه الضائع. ولا أرى من بأس في أن نسميه «العَموديَّ» على الشائع فيه الآن، ولا سيما أنه النوع الذي نبه أبو علي المرزوقيُّ في مقدمة شرحه لمختارات أبي تمام منه، على العمود الذي به نَهَضَ الشعر العربي القديم من سائر الكلام واختيرت مختاراتُه من سائر القصائد، كالعمود الذي به تنهض الخيمة من سائر الأرض وتُؤْثَرُ من سائر المنازل.

وأما النمط الثاني الذي عَيَّنَهُ أيمن، فالنوع الوسيط المستمر، الذي نشأ بالأندلس أواخر القرن الهجري الثالث، بهندسة أشطار البيت العمودي تامًّا أو غيرَ تامٍّ وزَخْرَفَةِ أطْرافها، وضبطه هبة الله بن سناء الملك، بكتابه «دار الطراز في عمل الموشحات»، وسمي «المُوَشَّحَ» لشبه أشطار أبياته المتوالية مهندسةً مزخرفةً، بصفوف الجواهر واللآلئ المتوالية ملصقةً على وشاح زينة المرأة الذي تجذبه من خَصْرِها لتطرحه على كتفها.

وأما النمط الثالث الذي عَيَّنَهُ براء، فالنوع الحديث المستمر، الذي نشأ بالعراق والشام ومصر أواخر النصف الأول من القرن الميلادي العشرين، بإطلاق البيت من عقال شطري البيت العمودي وقافيته وعقال أشطار البيت الموشح وقوافيها، واجتهدت أن تضبطه نازك الملائكة بكتابها «قضايا الشعر المعاصر»، ولا أرى من بأس في أن نسميه «الحُرَّ» على الشائع فيه الآن، ولا سيما أنه ظاهر التحرر من قيود العمودي والموشح.

أنس: كيف تعد ذَيْنِكَ المُوَشَّحَ والحُرَّ كهذا العَموديِّ!

أيمن: بل كيف تعد ذَيْنِكَ العَموديَّ والحُرَّ كهذا المُوَشَّحِ!

براء: بل كيف تعد ذَيْنِكَ العَموديَّ والمُوَشَّحَ كهذا الحُرِّ!

أبو مذود: بَلْ إِنَّ المُوَصِّيْنَ بَنو سَهْوان!

هي - يا مساكين - سَواءٌ، كُلُّ نَوْعٍ منها وَلَدُ دَواعٍ خاصة من الأسباب والغايات والوسائل وغيرها، وكلُّ داعٍ من هذه الدواعي إنسانيٌّ باقٍ بَقاءَ الإنسان نفسِهِ؛ فمن ثم ينبغي أن نقبل كل نوع من الشعر قبولنا لكل طَوْرٍ مِنْ أَطْوارِ الإنسان أو لكلِّ حالٍ مِنْ أَحْوالِهِ، فإنْ يَفْضُلْ عَمَلٌ ما مِنْ نوع أحيانا عَمَلًا ما مِنْ نوع آخر، لم يحملنا فَضْلُ الفاضل على إلغاء نوع المَفْضول؛ فإن الأعمال لَتَتفاضَلُ في النوع الواحد نفسه؛ فكيف بها في الأنواع المختلفة، ثم إن الفاضل عند أحدكم ربما كان مفضولا عند غيره، والعكس صحيح كذلك.

ثم إننا إن لم تَدْعُنا إلى نوع ما دواعيه، ثَقَّفَتْنا ثَقافَتُهُ المتعلقةُ به التي لا خير في اطراحها؛ فزادت من إنسانيتنا وأخصبت من حياتنا وأنارت من بصيرتنا، ورحم الله محمود حسن إسماعيل!

مواليه: رحمةً واسعةً!

أبو مذود: ما أَحْسَنَ ما لَبِسَ لِكُلِّ حالٍ مِنْ أَحْوالِ الْإِنْسانِ، بمجموعته «موسيقا مِنَ السِّرِّ»؛ فَدَلَّ على ثَقافَةٍ واسِعَةٍ، وإنسانيَّةٍ زائدةٍ، وَحَياة خَصيبةٍ، وبَصيرةٍ نَيِّرَةٍ!

براء: أحفظ له قوله:

أَلْفانِ وَعَشَرَةُ آلافْ

وَأنا طَوّافْ

في الْبَحْرِ الْغارِقِ في الْأَسْدافْ

روحي مِجْدافْ

قَلْبي مِجْدافْ

يجتازُ جُنونَ الرّيحِ وَيَنْفُذُ في الأَلْفافْ

وَيُحيلُ اللُّجَّ طَريقًا لِلأَعْرافْ

وَيُلاقي الجَوْهَرَ في الأَعْماقِ فَلا أَغْوارَ وَلا أَصْدافْ

وَحقيقَةَ هذا الكَوْنِ تَلوحُ فَلا أَسْرارَ وَلا أَلْطافْ

اَلْمَرْكَبُ طافْ

عُرْيانَ الرُّؤْيَةِ لا مَكْفوفَ وَلا خَوّافْ

أبو مذود: هو من أوائل حُرِّيَّتِهِ «موسيقا مِنَ الزَّمانِ» في مجموعته «موسيقا مِنَ السِّرِّ» نفسها، ولْتَتَأَمَّلوا دَوْراتِ الساعات في أثناء الفاءات.

أيمن: أحفظ له قوله:

يا رِياحَ المَغيبْ

يا أَغاني الزَّمَنْ

أَيُّ سِرٍّ رَهيبْ

في حَشاكِ اسْتَكَنْ

لِلشَّقِيِّ الغَريبْ

فَوْقَ هذا الوَطَنْ

هَلْ سَمِعْتِ الجِبالْ

في سُكونِ الظُّلَمْ

تَشْتَكي لِلرِّمالْ

سِجْنَها مِنْ قِدَمْ

أَمْ سَقاكِ الخَيالْ

جُرْعَةً مِنْ عَدَمْ

فَعَبَرْتِ التِّلالْ

وَالرُّبا وَالْقِمَمْ

غابَةٌ مِنْ زَوالْ

أَطْلَقَتْها السُّدُمْ

شابَ فَوْدُ الْغُيوبْ

وَهْيَ رَيّا الْفَتَنْ

إِنْ سَرَتْ لا تَؤوبْ

أَوْ بَكَتْ لا تَئِنْ

يا رِياحَ الْمَغيبْ

يا أَغانِيَ الزَّمَنْ

أبو مذود: هو من أوائل مُوَشَّحَتِهِ «رياحُ المُغيبِ» في مجموعته التي باسمها، وَلْتَتَأَمَّلوا دَوْراتِ الأقدار في أثناء الأسرار.

أنس: ألمحمود حسن إسماعيل المِصْري الصَّعيديُّ الدَّرْعَميّ، هذان الكَلامان!

أبو مذود: أجل، له هو نفسه عقله لسانه!

أنس: وكيف اجتمع في عقله ثم استقام على لسانه، مثل هذين ومثل قوله:

لا أَرْفُضُ المَوْتَ لكِنّي أُسائِلُهُ ... هَلْ ذُقْتَ ما أَنْتَ بِالإِنْسانِ فاعِلُهُ

شَيْءٌ هُوَ المَوْتُ يا جَبّارُ تَكْتُمُهُ ... خُطاكَ أَنْتَ وَراءَ العَيْنِ حامِلُهُ

مُقَنَّعٌ بِمَتاهاتٍ وَأَوْدِيَةٍ ... وَأَغْصُنٍ زَهْرُها ماتَتْ بَلابِلُهُ

وَتَسْحَرُ النّاسَ تَأْوي في مَخادِعِهِمْ ... وَفي خُطاهُمْ بِكَفٍّ لا تُزايِلُهُ

تَمْشي بِلا شَبَحٍ تَسْقي بِلا قَدَحٍ ... وَكُلُّ بابٍ وَمَهْما أَنْتَ داخِلُهُ

أَعْمى عَصاكَ بِلا دَرْبٍ وَلا بَصَرٍ ... وَلا صَدًى يُرْشِدُ الآذانَ قاتِلُهُ

وَلا يَقودُكَ إِلّا الغَيْبُ تَعْلَمُهُ ... وَكُلُّ حَيٍّ بِوَجْهِ الأَرْضِ جاهِلُهُ

تَزورُ لا أَدَبُ التَّزْوارِ تَعْرِفُهُ ... وَلا لَدَيْكَ إِلى إِذْنٍ وَسائِلُهُ

وَلا تُبالي إِذا داهَمْتَ مُنْتَهِيًا ... يَدْعوكَ أَمْ فارِسًا تَمْضي تُصاوِلُهُ

بِكَفِّـهِ أَمَـلُ الدُّنْيا وَغَفْلَتُـها وَكَفُّــكَ الْغَـدْرُ شَـتَّتْهُ مَناجِلُهُ
سَكَنْتَ في شَرَكِ الْأَنْفاسِ تَرْصُـــدُها كَصائِدٍ لَمْ تَخِبْ يَوْمًا حَبائِلُهُ

أبو مذود: ذاك أنه كان فنانا قداميا حداثيا مستقبليا، وما أنشدتُّ من أوائل عموديته «موسيقا من الموت» في مجموعته «موسيقا مِنَ السِّرِّ» نفسها، وَلْتَتَأَمَّلوا دَوْراتِ القَضاء في أَثْناءِ الفَناء.

أنس: ولكنْ ثَمَّ أصول عروضية ينبغي مراعاتها، وإلا خرج الكلام عن أن يكون أبياتا من الشعر، والأبيات عن أن تكون قصيدة واحدة.

براء وأيمن معًا: ما هي، يا فقيه؟

أنس تاليًا: «مَجْموعُ أَبْياتٍ مِنْ بَحْرٍ واحِدٍ، مُسْتَوِيَةٌ في عَدَدِ الْأَجْزاءِ، وَفي جَوازِ ما يَجوزُ فيها، وَلُزومِ ما يَلْزَمُ، وَامْتِناعِ ما يَمْتَنِعُ؛ فَخَرَجَ ما لَيْسَ مِنْ بَحْرٍ واحِدٍ، وَما هُوَ مِنْ بَحْرٍ واحِدٍ لكِنْ لا مَعَ الِاسْتِواءِ في عَدَدِ الْأَجْزاءِ كَأَبْياتٍ مِنَ الْبَسيطِ بَعْضُها مِنْ وافيهِ وَبَعْضُها مِنْ مَجْزوِّهِ، وَما هُوَ مِنْ بَحْرٍ واحِدٍ مَعَ الْاسْتِواءِ في عَدَدِ الْأَجْزاءِ لكِنْ لا مَعَ الِاسْتِواءِ في الْأَحْكامِ كَأَبْياتٍ مِنَ الطَّويلِ بَعْضُها ضَرْبُهُ تامٌّ وَبَعْضُها ضَرْبُهُ مَحْذوفٌ. وَلَيْسَ اتِّفاقُ الرَّوِيِّ شَرْطًا في تَحَقُّقِ مُسَمّى الْقَصيدَةِ، بَلْ في وُجوبِ سَلامَتِها مِنَ الْإِقْواءِ وَالْإِكْفاءِ وَالْإِجازَةِ وَالْإِصْرافِ اللّاتي هِيَ مِنْ عُيوبِ الْقافِيَةِ هذا مُفادُ كَلامِهِمْ فَاحْفَظْهُ».

براء وأيمن: قاتَلَكَ اللهُ، أَيُّ بَبْغاءَ أَنْتَ!

أبو مذود: بَلْ للهِ دَرُّكَ، أَيُّ حافِظٍ أَنْتَ!

تلكم - يا مَكْمَلي وَمَحْيايَ وَمَخْلَدي - عبارة السيد محمد الدَّمَنْهوريِّ شيخِ الجامع الأزهر في زمانه، بحاشيته «الإرشاد الشافي على متن الكافي في علمي العروض والقوافي لأبي العباس أحمد بن شعيب القِنّائي» - رحمهما الله! - عن مقالات من سبقه في القصيدة اصطلاحا.

براء وأيمن: إنه - يا مولانا - من حَفَظَةِ الظاهر المُقَلِّدين!

أبو مذود: بل هو - إن شاء الله - من حُفّاظِ الظاهر والباطن المستوعبين؛ فهات بيانك.

أنس: تلك العبارة على قدامتها، تَنْبِيهٌ حَسَنٌ على خصائص البيت والأبيات في القصيدة الواحدة، أنها:

عَروضيَّةٌ وَزْنيَّةٌ [ التفاعيل (نوع المقاطع اللغوية المعينة {الْبَحْرُ})، والطول (عدد التفاعيل)، والانقسام (صور أطراف الأشطار) ].

وعَروضيَّةٌ قافَويَّةٌ: [ الأجزاء (الأصوات)، والنوع (أوضاع الأجزاء) ].

فإمّا سَلَّمْتُ لصاحبيَّ هذين بأن أقسامَ نَصَّيْهِما تلك المُتَبَجِّحَةَ بإجازة ما يجوز من الزِّحافات كخَبْنِ (مُسْتَفْعِلُنْ) إلى (مُتَفْعِلُنْ) و(فاعِلُنْ) إلى (فَعِلُنْ) والعِلَل كتَذْييلِ (مُسْتَفْعِلُنْ) إلى (مُسْتَفْعِلانْ) وقطع (فاعِلُنْ) إلى (فاعِلْ)، المُتَعَدِّيَةَ إلى استباحة ما لم يقع من العلل كَتَسْبيغِ (فاعلْ) المقطوعة إلى (فاعلْنْ) وحذف (فاعلن) أحيانا من البَيِّنِ - أبياتٌ من بحر البسيط بها تكرر فيها من مُرَكَّباتِ مقاطع أصواته اللغوية المُعَيَّنَة، لم أُسَلِّمْ بأنها مستوية في عدد أجزاء، ولا مستوية في لزوم ما يلزم!

أيمن: كيف تقول مثل هذا في نونية سيدنا محيي الدين بن عربي؟

أنس: ألا ترى كيف خرج مطلع نونية سيدك، بعشر تفاعيل، وكل ما بعده على خمس وعشرين! أثم لا ترى كيف جرى في تفاعيلَ من بيتٍ على القطع وهو علة، ثم جرى في أشباهها من بيت آخر على القطع والتسبيغ، وكيف جرى في تفاعيلَ من بيتٍ على السلامة، ثم جرى في أشباهها من بيت آخر على التذييل... وهكذا!

أيمن: بل لا ترى أنت أنها من طريقة «رياح المغيب» السابقة!

براء: وكيف تقول مثل هذا في رائية سيدنا أحمد عبد المعطي حجازي؟

أنس: ألا ترى كيف خرج مطلع رائية سيدك، بثماني تفاعيل، وما بعده بثماني عشرة، وما بعدهما بست وعشرين... وهكذا!

براء: بل لا ترى أنت أنها من طريقة «موسيقا من الزمان» السابقة!

أيمن - وأعانه براء -: تَعْسًا لها أُصولًا عَليلةً!

أنس: بل سَعْدًا لها أُصولًا جَليلةً تُخْرِجُ نَصَّيْكُما عن الشعر إلى النثر؛ فإنَّ من شاء وجد مثلها في خلال كلام الناثرين!

أبو مذود: اعلموا ـ يا مَساكينُ ـ أَنَّ عروض الشعر وَلَدُ الموسيقا التي كانت بشريَّةً (غِناءً)، ثم صارت بشريَّةً آليَّةً (غِناءً وَعَزْفًا)، ثم صارت آليَّةً (عَزْفًا). وكلما طَوَّرَتْها سَعَةُ حُرِّيَّتِها وقوَّةُ سَبْقِها وسُرْعَةُ حَرَكَتِها، زادَ بَوْنُ ما بينها وبين وليدها الذي لا يعرف غير اتباعها والتعلق بها.

كانت الموسيقا دَوْراتٍ كثيرة قصيرة ساذجة محددة متوالية؛ فكان عروضُ العمودي والقصيدةُ منه أبياتٌ كثيرة قصيرة ساذجة محددة تتوالى مؤتلفةً أجزاءً (بحرا) وأحوالَ أجزاء (سلامة وتغيرا).

ثم صارت الموسيقا دَوْراتٍ قليلة طويلة مزخرفة محددة متوالية؛ فكان عروضُ الموشح والقصيدةُ منه أبياتٌ قليلة طويلة مزخرفة محددة تتوالى مؤتلفةً أجزاء (بحرا)، مختلفة أحوال أجزاء (سلامة وتغيرا).

ثم صارت الموسيقا دَوْرةً واحدة متطاولة مضطربة؛ فكان عروضُ الحر والقصيدةُ منه ينبغي أن تكون بيتًا واحدا متطاولا مضطربا يبدأ ثم لا ينتهي إلا أخيرا مرة واحدة، ولكنها لم تستقم على ما ينبغي لها إلا بعد زمان طويل.

وإنَّ تلكم الخصائص العروضية الوزنية والقافوية التي أحسن أنس استنباطها من عبارة الدمنهوري، لَهِيَ الروابطُ الباطنة التي إذا انضافت إليها روابطُ النصِّ الواحدِ اللغويةُ الظاهرةُ استوت القصيدةُ بُنْيانًا عَروضيًّا لُغَويًّا (نَصًّا مَوْزونًا)، وَحدةُ جانبه العروضيّ البيتُ، ووَحدة جانبه اللغويّ الجملة.

ثم إنَّه بنصيب البيت والأبيات في القصيدة الواحدة من هذه الخصائص، يظهر نوع الشعر.

ثم إنَّ الدمنهوري عالمٌ قَداميٌّ لم يتجاوز نصيب البيت العمودي.

ثم إنَّه تَقْليديٌّ لم يتجاوز أبيات العروضيين، بل كان متن صاحبه أكثر شعرا من حاشيته التي فَرَّقَتْ بين العروض وشعره، ورحم الله محمود حسن إسماعيل مرة أخرى!

مواليه: رحمة واسعة مرة أخرى!

أبو مذود: حدثنا أبو تميم عبد الحميد بسيوني ـ أحسن الله إليه! ـ مستشار أمير الكويت، أنه شهد مجلس أستاذنا محمود محمد شاكر ـ رحمه الله رحمة واسعة! ـ وقد أقبل محمود حسن إسماعيل ينشد من شعره المجلس الجليل، وفيه الحسّاني حسن عبد الله الفنّان الشاعر العالِمُ العَروضيُّ القَداميُّ، يَتَسَقَّطُ له، حتى لَقَطَ شيئا صاح به عليه؛ فغضب محمود حسن إسماعيل.

قال أبو تميم: فلما كان المجلس التالي، بَدَرَ إسماعيلُ بِحُرَّيَتِهِ «الوَهَجُ وَالدّيدانُ»، يقول:

تَفْعيلَتانْ
ثَلاثُ تَفْعيلاتْ
وَسَبْعُ تَفْعيلاتْ
وَأَحْرُفٌ تُعانِقُ الأَلْحانَ بِالأَحْضانِ وَالرّاحاتْ
تُدَفِّقُ النّورَ عَلى حَفائِرِ الأَمْواتْ
شَلّالَ موسيقا بِلا قَواعِدٍ مَرْسومَةِ الرَّنّاتْ
مَعْصومَةِ الإِيقاعِ دونَ حاسِبٍ مُزَيَّفِ الميقاتْ
يَعُدُّها مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجيءَ بِالأَسْبابِ وَالأَوْتادِ وَالشَّطْراتْ
تَشُقُّ بابَ الرّوحِ لا تَسْتَأْذِنُ الإِصْغاءَ وَالإِنْصاتْ
وَلَيْسَ في إِعْصارِها سَبّابَةٌ تُعَذِّبُ المالاتْ
وَلا فُصولُ المَوْتِ وَهْوَ يَسْأَلُ الحَياةَ عَنْ تَوَهُّجِ السّاحاتْ
وَلا فُصولُ اللَّيْلِ وَهْوَ يَسْأَلُ الفَجْرَ لِماذا تَنْسَخُ الرُّفاتْ
ضَجَّ البِلى مِنْ صَيْحَةِ الإِشْراقِ في تَشَبُّثِ المَواتْ
وَانْتَفَضَتْ هَياكِلٌ مَرْصوفَةُ الطُّقوسِ مِنْ تَناسُقِ الأَشْتاتْ
وَكُلُّ ما فيها قَرابينُ تُقَدِّسُ الرِّمامَ في كُلِّ حَصادٍ ماتْ
مَصْلوبَةُ الجُمودِ وَالرُّكودِ وَالهُمودِ وَالسُّباتْ

عَلى مَطايا زَمَنٍ مُهَرَّأ الأَكْفاتْ
تَحَرَّكَتْ في غَبَشِ الكُهوفْ
جَنائِزًا في لَحْدِها تَطوفْ
مَشْلولَةَ المَسيرِ وَالحِراكِ وَالوُقوفْ
كَأَنَّها لِتُرَّهاتِ أَمْسِها رُفوفْ
أَوْ أَنَّها لِكُلِّ نورٍ شَعَّ في زَمانِها حُتوفْ
تُريدُ شَلَّ الوَهَجِ العَصوفْ
بِأَعْيُنٍ ضِياؤُها مَكْفوفْ
وَأَلْسُنٍ نِداؤُها مَعْقوفْ
تَهاتَرَتْ مَحْذورَةً مِنْ سَمْتَةِ العُكوفْ
وَراعَها تَمَزُّقُ السُّجوفْ
وَخَيْبَةُ التَّكْرارِ وَالدُّوارِ في القيعانْ
فَأَنْشَبَتْ هُذاءَها في القَشِّ وَالعيدانْ
وَالحُبُّ عَنْ عَمائِها مُغَلَّفٌ نَشْوانْ
وَوَعْيُها مِنْ غَشْيَةٍ غَفْلانْ
وَطَرْفُها مِنْ عَشْيَةٍ ظَمْآنْ
لِكُلِّ ما لَمْ يَبْقَ فيهِ قَبَسٌ لِخُطْوَةِ الإِنْسانْ
سُبْحانَ رَبِّ النّورِ مِنْ تَحَرُّكِ الأَكْفانْ
سُبْحانَهُ سُبْحانْ
مَنْ أَيْقَظَ الدّيدانْ
أَنْغامُ هذا الطَّيْرِ ما لَقَّنَها بُسْتانْ
وَلا حَداها حارِسٌ يَقْظانْ
وَلا بِغَيْرِ ما تَجيشُ نارُها تَحَرَّكَتْ بَنانْ
مِنْ ذاتِها وَوَحْيِها رَحيقُها الصَّدْيانْ
الرّافِضُ الإِيماءَ لِلْوَراءِ يَمْتَصُّ خُطا الرُّكْبانْ

الرّافِضِ الْقِياسَ في الصَّدى وَفي المَدى وَفي اللِّسانْ
وَفي هَوى التَّنْغيمِ وَالتَّفْخيمِ وَالتَّرْنيمِ وَالإِرْنانْ
تَدَفَّقَتْ لا تَعْرِفُ التَّطْريزَ في تَوَهُّجِ الأَلْحانْ
وَلا خِداعَ السَّمْعِ في تَبَرُّجِ الحُروفِ لِلآذانْ
وَلا لِخَطْوِ اللَّحْنِ قَبْلَ سَكْبِهِ مِنْ نايِها ميزانْ
أَسْكَرَها خالِقُها قَبْلَ انْبِثاقِ اللَّحْنِ بِالأَوْزانْ
تَحَرَّرَتْ فَما بِها لِلْقالَبِ المَصْبوبِ قَبْلَ كَأْسِها إذْعانْ
زَخارِفٌ مَطارِفٌ مَتاحِفٌ لِقِشْرَةِ الأَكْوانْ
قَواقِعٌ بَراقِعٌ بَدائِعٌ زَيّافَةُ الأَلْوانْ
جَلَّ عَزيفُ النّايِ أَنْ يَقودَهُ إِنْسانْ
وَجَلَّ روحُ الفَنِّ عَنْ تَناسُخِ الأَبْدانْ
فَالشِّعْرُ شَيْءٌ فَوْقَ ما يَصْطَرِعُ الجيلانْ
روحٌ تَرُجُّ الروحَ كَالإِعْصارِ في الْبُسْتانْ
بِزَفِّها وَحَرْفِها وَنورِها المُمَوْسَقِ النَّشْوانْ
وَخَمْرِها المَعْصورَةِ الرَّحيقِ مِنْ تَهادُلِ الأَزْمانْ
لِكُلِّ جيلٍ كَأْسُهُ لا تَفْرِضوا الدِّنانْ
مَلَّ النَّدامى حَوْلَكُمْ عِبادَةَ الأَكْفانْ
فَجَدِّدوا أَرْواحَكُمْ لا تَظْلِموا الميزانْ
فَالشِّعْرُ لَحْنٌ مِنْ يَدِ الرَّحْمنْ
سُبْحانَهُ سُبْحانْ
مُلْهِي النُّسورِ عَنْ خُطا الدّيدانْ

مواليه: «حاسِبِ مُزَيَّفِ الميقاتْ»، «سَبّابَةٌ تُعَذِّبُ الهالاتْ»، «فُصولُ المَوْتِ»، «فُصولُ اللَّيْلِ»، «تَشَبُّثُ المَواتْ»، «تَناسُقِ الأَشْتاتْ»، «تَحَرُّكِ الأَكْفانْ»، «تَناسُخِ الأَبْدانْ»، «عِبادَةَ الأَكْفانْ»، «خُطا الدّيدانْ»!

اللهمّ نجاةً! لقد عرّاهُ للملأ، ثم سَلَخَ عليه! بل لقد زَلْزَلَهُ وأَضَلَّه عن نفسه ثم تركه في بَيْداء! فأَيَّةُ مَذَمَّةٍ لم يَصُبَّها عليه! وأَيَّةُ مَحْمَدَةٍ لم يَسْلُبْها منه!

أبو مذود: ثم تأملوا ـ يا مَكْمَلي ومَحْيايَ ومَخْلَدي ـ كيف تَجلّى قوله:

«فَالشِّعْرُ شَيْءٌ فَوْقَ ما يَصْطَرِعُ الجيلانْ»،

مَنارَةً يرى بها العالِمُ استيعابَ الفنانين جميعا قَداميّينَ وحَداثيّينَ ومُسْتَقْبَليينَ ـ مهما تَلاعَنوا بين يديه وتَنافَوا ـ طَريقًا إلى كمال نظره الذي لن يكون إلا بمزج أعمالهم كلها بعضها ببعض مادةً لعمله.

ـ وقوله:

«لِكُلِّ جيلٍ كَأْسُهُ لا تَفْرِضوا الدِّنانْ»،

منارة أخرى يرى بها العالِمُ كُلَّ نَوْعٍ من أنواع الشعر، وَلَدَ دَواعٍ خاصة من الأسباب والغايات والوسائل وغيرها، وكلُّ داعٍ من هذه الدواعي إنسانيًّا باقيًا بَقاءَ الإنسان نفسِهِ؛ وأننا إن لم تَدْعُنا إلى نوع ما دواعيه، ثَقَّفَتْنا ثَقافَتُهُ المتعلقةُ به التي لا خير في اطراحها؛ فزادت من إنسانيتنا وأخصبت من حياتنا وأنارت من بصيرتنا.

مواليه: اللهم، لك تُبْنا، وإليك أَنَبْنا؛ فَتَقَبَّلْنا في عبادك الخطّائين التوابين؛ وكَرِّهْ إلينا جَهالَةَ الجُهَلاءِ وسَفاهَةَ السُّفَهاءِ ما أَحْيَيْتَنا، فإمّا قَعَدَ بنا العَجْزُ عن شَأْوِ مولانا أبي مذود وتعليمه، فاقبضنا إليك غيرَ مُحَرِّفينَ ولا مُزَيِّفينَ ولا مُخْتَلِفينَ!

تَأَمَّلْـ... تُ في قَهْـ... وَتي
ددن دن... ددن دن... ددن
خُلودَ... هَوى نَجْـ... مَتي
ددن د... ددن دن... ددن
بِمَنْزِ... لَةِ الْبَهْـ... جَةِ
ددن د... ددن دن... ددن
فَلَمْ أَصْـ... حُ مِنْ سَكْـ... رَتي

ددن دن... ددن دن... ددن

أنا فَـ... لَكُ الحُلْـ... م شَخْبَلْ

ددن د... ددن دن... ددن دن

سَيَنْفَـ... تِحُ الْبا... بُ يَوْمًا... لِأَدْخُلْ

ددن د... ددن دن... ددن دن... ددن دن

فإذا الصوتُ الواحدُ الغَريبُ يتباعد بالشَّبَحِ المَعْروف عندهم المُنْكَرِ بينهم، والنَّ[illegible]لمَوّارُ يَتَدَفَّقُ في الصَّبَبِ وراءهم.

# مَقامُ الصَّعْلَكَةِ

«وَما نِلْتُها حَتّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً وَكِدْتُ لِأَسْبابِ الْمَنِيَّةِ أَعْرِفُ»!

السُّلَيْكُ بْنُ السُّلَكَةِ

«كانَتِ الخَيْلُ في الْبَدْءِ كَالنّاسِ بَرِّيَّةً تَتَراكَضُ عَبْرَ السُّهولْ

كانَتِ الخَيْلُ كَالنّاسِ في الْبَدْءِ تَمْتَلِكُ الشَّمْسَ وَالْعُشْبَ وَالْمَلَكوتَ الظَّليلْ»!

أَمَلْ دُنْقُلْ

بُنَيَّ، خَميسَ قَلَمْ،

لَمّا هَمَمْتُ أَنْ أَزورَ كُلِّيَّةَ الْآدابِ وَالْعُلومِ الِاجْتِماعيَّةِ بِجامِعَتِكَ جامِعَةِ السُّلْطانِ قابوسَ، خَريفَ ٢٠٠٦/٥م، مِنْ بَعْدِ غِنايَ بِها سِتَّ سَنَواتٍ مِنْ خَريفِ ١٩٩٨/٧م، إِلى صَيْفِ ٢٠٠٣/٢م - كَتَبْتَ إِلَيَّ عَلى مَحْمولِيَ المِصْريِّ، في أُغَسْطُسَ ٢٠٠٥م:

«حِمى الصَّعاليكِ، أَمْ غَوايَةَ الذاكِرَةِ»!

هكَذا فَقَطْ، مِنْ دونِ أَنْ تُفْسِدَ كَلامَكَ بِتَقْديمِ مَقامٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلا بِتَعْليقِ مَرامٍ عَلى عَقِبِهِ؛ فَكُنْتَ كَمَنْ عَجِبَ لِجائِعٍ نائِمٍ هَمَّ بِالطَّعامِ؛ فَقالَ لَه:

«اشْتَقْتَ إِلى الطَّعامِ، أَمْ شَوَّقَكَ الشِّبَعُ»!

وَما الطَّعامُ لِلْجائِعِ النّائِمِ - يَرْحَمُكَ اللهُ! - وَما الشِّبَعُ؛ ما هذا إِلّا ذاكَ، وَما ذاكَ إِلّا هذا!

لقد أَرَدْتَ نَفْسَكَ وصَحْبَكَ أُدَباءَ هذه الجامعة الشَّبابَ، الَّذينَ خالَطْتُموني وَخالَطْتُكُمْ؛ فَقَدْ آتَيْتُ كُلَّ واحِدٍ مِنْكُمْ سِكّينًا بِقَوْلِ السُّلَيْكِ بْنِ السُّلَكَةِ ذلِكَ الَّذي جَعَلَ فيه الصَّعْلَكَةَ مَقامًا حَسَنًا سَعى إليه سَعْيَ السّالِكينَ، ثم أَخْرَجْتُ عَلَيْكُمْ قَوْلَ أَمَلْ دُنْقُلْ ذاكَ الَّذي نَبَّهَ فيهِ عَلى حُرِّيَّةِ أَهْلِ الْمَقامِ؛ فَقَطَّعْتُمْ أَيْدِيَكُمْ، وَلَمْ تَتَمَتَّعوا بِعَيْشٍ دونَ تَوَطُّنِ ذلِكَ الْمَقامِ، وَلَمْ تُبالوا بالَةً بِأَحْوالِهِ الَّتي يَضْطَرُّكُمْ إِلَيْها مَرَّةً، وَيُغْريكُمْ بِها أُخْرى؛ فَيَتْرُكُكُمْ راضينَ ساخِطينَ أَبَدًا، وساخِطينَ راضينَ أَبَدًا!

بُنَيَّ، خَميس قَلَم،

زَعَمَ لي عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ أَنَّكَ احْتَمَلْتَ إلى حِماهُ وَعَرَضْتَ عَلَيْهِ نَفْسَكَ، وَأَنَّه اسْتَصْغَرَ سِنَّكَ وَاسْتَضْعَفَ عَزْمَكَ، وَأَنَّكَ لَمْ تَبْرَحْ أَطْنابَ خَيْمَتِهِ، حَتى عَمِلْتَ لَه كِتابَ شِعْرٍ سَمَّيْتَه «ما زالَ تَسْكُنُه الخِيامُ»، تَتَوَسَّلُ إلَيْهِ بِهِ؛ فَعَلِمَ صِدْقَكَ، واسْتَحْسَنَ رَأْيَكَ!

- لقد زَعَمَ لي أنه تَأَمَّلَ قَوْلَك مِنْ كَلِمَتِك «نَحْنُ»:

«نولَدُ مُنْدَهِشينَ بِما لَيْسَ نَدْري (...)

تُشْبِهُنا الرّيحُ

روحٌ تَشَظَّتْ

حَفْنَةٌ مِنْ هَديرِ المَدى

صَرْخَةٌ في الْفَراغِ

جُنونٌ يُفَتِّشُ عَمّا وَراءَ النِّهايَةِ»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «عُشْبَةُ الذّاكِرَةِ»:

«في غِيابِكَ

رَوَّيْتُ حُزْني عَلَيْكَ بِبَعْضِ الْوُجومِ فَخُذْ لَوْنَ حُلْمِكَ

وَاتْرُكْ لَنا خُضْرَةَ الذّاكِرَهْ (...)

وَلا تَخْشَ بُعْدًا

فَكُلُّ النُّفوسِ إلى أَصْلِها الْبَرْزَخيِّ بِكُلِّ تَجاعيدِها

عائِدَهْ»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «انْتِظارٌ»:

«بَعيدًا عَنِ الْكائِناتِ

جَلَسْتُ

أُراقِبُ ذاتي

وَأَنْزِعُ عَنّي صِفاتي»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «حُزْنِيَّةٌ لِظِلٍّ عابِرٍ»:

«أَيْنَ تَمْضي بِنا يا قِطارُ»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «غِيابٌ»:

«سافَرْتَ كَيْفَ زَرَعْتَ لِلْمَنْفى

حَدائِقَه

وَكَيْفَ بَذَرْتَ في أَكْبادِنا

جَمْرا»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «قَرابينُ»:

«سَوْفَ يَبْقى لَنا

جُرْحُنا المُتَخَثِّرُ بِالدَّمْعِ وَالأَصْدِقاءِ

وَيَبْقى لَهُمْ

أَنْ يَمُرّوا عَلى جُرْحِنا

دَمْعَةً عابِرَهْ»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «كَما شاءَتِ النَّرْجِساتُ»:

«نَلْتَقي نَفْتَرِقْ»؛

فرأى في غُموضِ دواعي الإدهاش ومُشابَهَةِ طَبيعة الـريح المُتَشَـتِّتَةِ الفارِغَـةِ الضّـائِعَةِ، اللَّذَيْنِ في قولك الأول ـ وفي الإنْهِزامِ بِمَوْتِ الصاحب وانْتِظار نِهايَةٍ مِثْلِ نِهايَتِه، اللَّذَيْنِ في قولك الثاني ـ وفي ارْتِكابِ التَّساقط، الذي في قولك الثالث ـ وفي طُغْيانِ سُنَنِ الحيـاة، الـذي في قولـك الرابع ـ وفي الإضْطِرارِ إلى اسْتِحْياءِ المَوات عَلى رَغْمِ مَواتِ الحَياةِ، الذي في قولك الخـامس ـ وفي الاسْتِكانَةِ إِلى خُلودِ الآلام، التي في قولك السادس ـ وفي طَبيعَةِ تَمْهيدِ الإلْتِقاءِ لِلافْتِراقِ، التـي في

قولك السابع ـ رَأى في ذلِكَ وُجوهًا مُختَلِفَةً مُؤْتَلِفَةً مِنْ فَقْرِه القديم الَّذي أَعْجَزَه عَمّا رَغِبَ فيه وَمَنْ رَغِبَ فيه كِلَيْهِما، عَجْزًا طَويلًا طَويلًا!

- ثم زَعَمَ لي أنّه تَأمَّلَ قَوْلَكَ في كَلِمَتِكَ «إلى أُمّي»:

«عِنْدَما أرْجِعُ بِالشَّمْسِ

إلى أُمّي

سَأُلقيها عَلَيْها

عَلَّها تَرْتَدُّ مِنْ بَعْدُ

شَبابًا

وَأَنا أرْتَدُّ طِفْلًا

في يَدَيْها»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «بوذا»:

«يُهاجِرُ مِنْ أَصْلِه الحَجَرِيِّ

إلى أُغْنِياتِ الصَّبايا»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «مِنْ ماءِ الرّوحِ»:

«إنّي أَحْلِفُ بِالحُبِّ الْعُذْرِيِّ

عَلى أَنّي أَكْفُرُ بِالْعُرْفِ الْقَبَلِيِّ

وَأَمْنَحُ روحي لِلرّيحِ

أَهيمُ عَلى شِعْري

أَتَرَنَّحُ في الصَّحْراءِ»،

ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «الَّتي في عَباءَتِها»:

«كَيْفَ لي أَنْ أُخَبِّئَ بَيْنَ عُروقِ دَمي

كُلَّ هذا الرُّخامِ»؛

فَرَأى في إباءِ ما عَلَيْهِ الحاضِرُ وَالماضي جَميعًا، الَّذي في قَوْلِكَ الأَوَّلِ ـ وَفي تَخْليدِ الأَمَلِ، الَّذي في قَوْلِكَ الثّاني ـ وَفي اسْتِبْشاعِ التَّقاليدِ المُتَناقِضَةِ، الذي في قولك الثالث ـ وفي اسْتِفْراغِ الصَّبْرِ، الَّذي في قَوْلِكَ الرّابع ـ رَأى في ذلِكَ وُجوهًا مُخْتَلِفَةً مُؤْتَلِفَةً من رَفْضه الذي دافَعَ بِه عَجْزَه، دِفاعًا طَويلًا طَويلًا!

- ثم زَعَمَ لي أنّه تَأَمَّلَ قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «في القَلْبِ مُتَّسَعٌ»:

«حُبِسْتُ
بِبِئْرِ النَّوايا الرَّديئَةِ
مُتَّهَمًا بِالخُروجِ عَنِ الظِّلِّ
هذا الظَّلامُ الكَفيفُ
امْتِدادُ الحَقيقَةِ
في داخِلي
وَطُيورٌ مَناقيرُها
كَالمَناجِلِ
تَنْهَشُ مِنْ خُبْزِ
رَأْسِيَ مِلْحَ الحَنينِ»،

ثم قَوْلَكَ مِنَ كَلِمَتِكَ «مِنْ سيرَةِ مَجْنونِ الرَّمْضاءِ: بُكائيَّةٌ»:

«والِدُها
أَلْعَيْنُ في القَبيلَهْ
يَخْدِشُ ظَهْرَ حُبِّنا
بِكَفِّه النَّبيلَهْ
يَبْحَثُ في دِمائِيَ الدَّخيلَهْ
عَنْ لُغَةٍ مَلْساءَ (...)

أميرَةَ الصَّحْراءْ

سَيِّدَةَ الرِّمالِ وَالْخِيامْ

أَيَّتُها الرَّمْضاءْ

مُجَنْدَلٌ...

وَتَحْتَ أَعْتابِ الْهَوى أُضامْ

تَطْرُدُني قَبيلَتُكْ

تَجْلِدُني ظَهيرَتُكْ

تَخْنُقُني ضَفيرَتُكْ

تَصْفَعُني زَوابِعُ الشَّتائِمِ الْهَوْجاءْ

يَنْتَحِرُ الرَّجاءُ في جَبيني

وَيَذْبُلُ الْكَلامْ»؛

فَرأى في اتِّحاد الظُّلْمِ وَالظَّلامِ، الَّذي في قَوْلِكَ الْأَوَّلِ ـ وفي الحُؤول بَيْنَ الْمُتَحابَّيْنِ وَسوءِ مُكافَأَةِ الْإِخْلاصِ، اللَّذَيْنِ في قَوْلِكَ الثّاني ـ رَأى في ذلِكَ وُجوهًا مُخْتَلِفَةً مُؤْتَلِفَةً مِنْ خَلْعِه الَّذي احْتَقَرَ بِه النّاسُ إِياهُ، احْتِقارًا طَويلًا طَويلًا!

- ثم زَعَمَ لي أَنَّه تَأَمَّلَ قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «خُروجٌ»:

«لا وُجودَ

لِغَيْرِ النِّساءِ اللَّواتي

يُكَرِّسْنَ أَثْداءَهُنَّ

لِإِرْضاعِ ثائِرْ (...)

دَمٌ يَتَوَزَّعُ بَيْنَ الْقَبائِلِ

يُثْقِلُ أَعْناقَهُمْ

يا دَمي

سَتَفِرُّ إلى غَيْمَةٍ في أقاصي الرِّياحِ
فَكُنْ لي وَفيًّا هُناكَ
وَكُنْ لِلضَّفائِرْ»،
ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «غَضْبَةُ الصَّحْراءِ... نايُ الْبَدَويِّ الْغَوّاصِ»:
«يَنْمو بِأَحْشاءِ المَفازَةِ مِنْ بَقايا الأَمْسِ
نافِذَةٌ تُطِلُّ عَلى السَّماءِ رُؤًى وَجَمْرا
مِنْ لَعْنَةٍ وُلِدَتْ بِمَهْدِكَ تَوْأَمًا
غَضَبٌ يَطيشُ إلى السَّماءْ
بَحْرٌ يَمَصُّ أَصابِعَ الصَّحْراءِ
مُنْكَسِرًا لِرَغْبَتِها
يَدُقُّ بِمَوْجِ مِعْوَلِهِ الجِدارْ
وَيَمُدُّ قَبْرا
ما زالَ تَسْكُنُهُ الخِيامُ
مُغاضِبًا يَمْضي إلى اللّاشَيْءِ أَوْ شَيْءٍ بِهِ كُلُّ النَّهارْ»،
ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «المَرْجوُّ»:
«أنا الْقادِمُ المَرْجوُّ
قَلْبي حَمامَةٌ
تَطيرُ إِلَيْكُمْ
بِالأَناشيدِ وَالحُبِّ
وَكَفّايَ فَيْضُ الْياسَمينِ
وَمِنْ فَمي شُموعٌ
تُنيرُ الْعُمْرَ في حالِكِ الْغَيْبِ (...)

أُبَشِّرُ

بِالْأَنصابِ تَسْقُطُ

بِالْأَسى يَغورُ

بِقُطْعانِ الخَطايا

يَحُفُّها

سِياجُ حَناني

بِالسَّلامِ

وَبِالخِصْب (...)

وَصايايَ:

كونوا أَوْفِياءَ لِحُزْنِكُمْ

وَلا تَطعَموا النِّسْيانَ

إِنْ يَقْسُ طينُكُمْ

أُخوَّتَكُمْ لا تَدْفِنوها بِسُخْطِكُمْ

وَلا تُهْمِلوا الْأَقْراطَ

فَهْيَ جُلودُكُمْ

وَلا تَهْجُروا أَوْطانَكُمْ دونَما ذَنْب

جُعِلْتُمْ لِرَتْقِ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ فَتْقِها

بِإِيمانِكُمْ أَنَّ الْقُلوبَ قَبائِلٌ

تَعارَفُ بِالْإِيغالِ

بَيْنَ عُروقِها

فَلا تَسْتَبيحوا خَيْلَها وَخِيامَها

وَلا تَقْرَبوا الْأَوْحالَ عُذْرًا بِجَهْلِها

وَكونوا وَأَعْناقُ الْغُرورِ عَلى حَرْب
أنا أَيُّها الْفانونَ فيكُمْ طَريقَةٌ
بِكُمْ تَنْجَلي أَوْ تَجْتَلي صَحْوَةُ الْقُطْب»،
ثم قَوْلَكَ مِنْ كَلِمَتِكَ «حُلُمٌ»:
«كَاللَّحْظَةِ مُشْتَعِلًا حينَ أُقامِرُ بِالْماضي أَنْثالُ
أُتَرْجِمُ كُلَّ لُغاتِ الرَّغْبَةِ في أَحْلامِ الْيَقْظَةِ»؛

فرأى في ضَرورَةِ الثَّوْرَةِ على الظُّلْمِ وضَرورَةِ تَعْميمِها، اللَّتَيْنِ في قولك الأول - وفي كَفْكَفَةِ آلامِ الثَّوْرَةِ بآمالِها وإِخْفاقاتِها بِتَوْفيقاتِها، التي في قولك الثاني - وفي رَدِّ شَرائِعِ الثَّوْرَةِ إلى زُعَمائِها وتَزْويجِ وَصاياهُمْ بين خُلَفائِهم وأَتْباعِهم، اللَّذَيْنِ في الثالث - وفي اقْتِحامِ الْماضي بِالْحاضِرِ، الَّذي في الرابع - رَأى في ذلك وُجوهًا مُخْتَلِفَةً مُؤْتَلِفَةً مِنْ ثَوْرَتِه الَّتي قاتَلَ بها احْتِقارَ النّاسِ لإبائه، قِتالًا طَويلًا طَويلًا!

- ثُمَّ قالَ:

كِتابٌ بِسَبْعَ عَشْرَةَ كَلِمَةً: سَبْعٌ منها فَقْرِيّاتٌ، وَأَرْبَعٌ رَفْضِيّاتٌ، وَاثْنَتانِ خَلْعِيَّتانِ، وَأَرْبَعٌ ثَوْرِياتٌ!

هذا - وَرَبِّ الْبَيْتِ - ما لا يَكونُ إِلّا مِمَّنْ آمَنَ بِالصَّعْلَكَةِ حَتّى صارَ هُوَ نَفْسُه مَظْهَرَ كُنْهِها، وَحَرَصَ عَلَيْها حَتّى صارَ هُوَ نَفْسُه لِسانَ حالِها؛ فَأَقْبَلَ يَتَأَتّى إِلَيْها، وَيُغْري بِها!

أُشْهِدُكُمْ - يا أَبْنائي - أَنّي قَدْ قَبِلْتُه فيكُمْ، لَه ما لَكُمْ، وَعَلَيْهِ ما عَلَيْكُمْ!

